473

HARLEQUIN

روايات أحلام

أحزان ابنة الفجر

جوليا جايمس

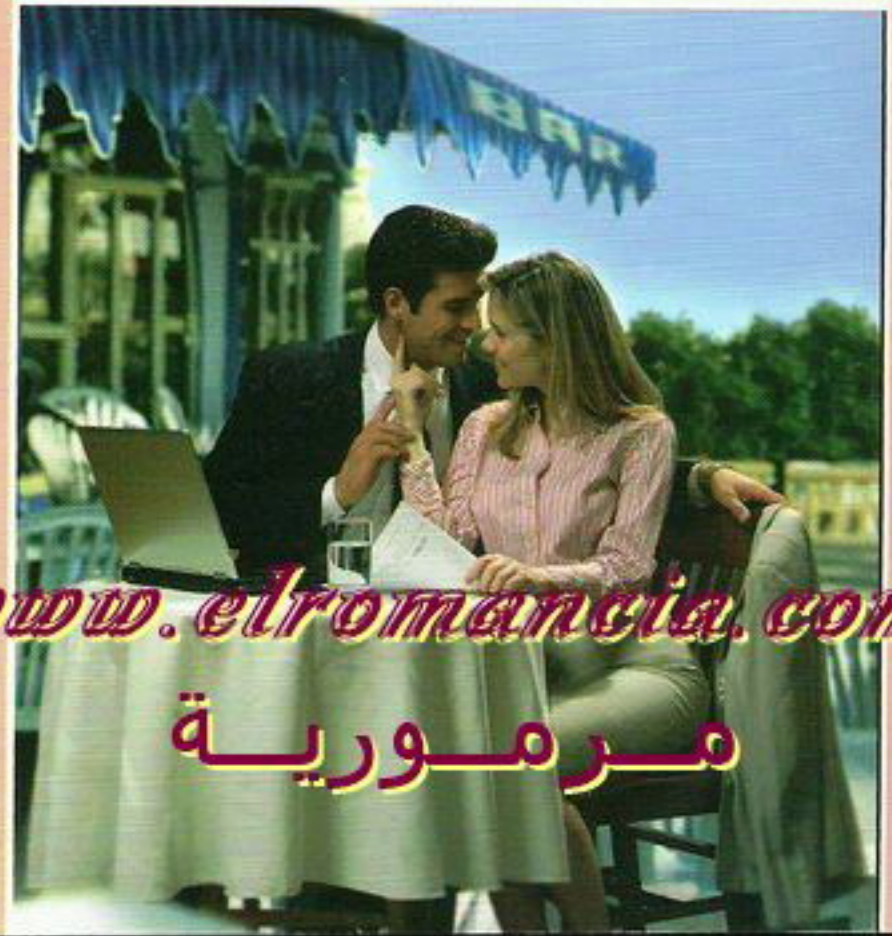

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

أحزان ابنة الفجر

ما زالت رايتشل فايل تعاني من ذكرى رفض فيتو فارنيسى لها بفظاظة واتهامه لها علناً بالسعي وراءه وبإغوائه.
لكن الظروف المأساوية أجبرت رايتشل على الاتصال بفيتو مجدداً, فهي بحاجة ماسة و يائسة إلى زواج ملائم. لهذا جاءت إلى فيتو مسلحة بإحدى أثمن ممتلكاته لتقايضه بها مقابل الزواج.
إلا أن فيتو رفض الخضوع للابتزاز, لاسيما من قبل امرأة ساعية خلف الثروة. ومع ذلك وقع في الفخ الذي نصبته له, والآن أصبح هدفه التالي هو الانتقام!

جوليا جايمس

تعيش جوليا في بريطانيا. روايات Mills Boon هي أولى كتب «الكبار» التي قرأتها وهي في سن المراهقة، وهي تقرأ هذه الروايات حتى الآن. تحب جوليا أجواء الريف الإنكليزية في كل فصوله وتسحرها قصوره التاريخية ومزارعه القديمة، وهي معجبة أيضاً بطبيعة البلدان المتوسطية التي تعتبرها الأجمل بعد انكلترا، ولهذا تعتمدها كمسرح لأحداث رواياتها الرومنسية. تهوى جوليا، إلى جانب كتابة الروايات، المشي والعناية بالحديقة، والتطريز وتحضير قوالب الحلوى الشهية. وتحاول أن تحافظ على وزنها وصحتها!

١ ــ لقيطة

هبت نسمة هواء من المبنى الطويل القائم أمامها، فتمايلت أعمدة المياه المتدفقة الشبيهة بالريش، وأحست رايتشل برذاذ آني خفيف من قطرات المياه يرشها عندما مرت بالقرب من النافورة.

أحسّت بالبرودة تلفح بشرتها.

هذا ما يجب أن تكون عليه؛ باردة، هادئة، رصينة، ومن دون أي أثر للأحاسيس. إنها هنا لكي تجري عقد عمل. هذا كل شيء. لو فكرت بما هي على وشك القيام به على أي نحو آخر...

لا! لا تفكري... لا تشعري... بهذا الشكل يمكنك أن تجتازي هذا الموضوع.

والأهم من كل شيء، لا تتذكري!

ضغطت رايتشل على زر في دماغها ذهنياً، فقطعت على نفسها حبل أفكارها.

انطلق رذاذ آخر من المياه بشكل متقطع فوق بشرتها مجدداً. تشربت رايتشل ذاك السكون الصافي المنبعث من نافورة المياه ذات الهندسة المميزة، التي تزين مدخل المبنى الزجاجي المتوهج الخاص بالمكاتب. إنه مبنى ملائم ليكون المقر الرئيسي لإحدى أكبر التكتلات الصناعية وأكثرها نجاحاً في بريطانيا. بدا مبنى شركة فارنيستي الأكثر فخامة بين المباني الموجودة في هذه الحديقة البهية المخصصة للأعمال، والتي تقع على حدود تشيسويك إحدى أقدم القرى في لندن.

www.elromancia.com

تابعت رايتشل سيرها فوق كعبي حذائها العاليين اللذين جعلاها تتمايل بأناقة في بذلتها الثمينة التي تمت خياطتها خصيصاً لها.

جلست بحذر شديد أثناء قدومها إلى هنا، فحرصت على ألاّ تتجعد تنورتها ذات اللون البنفسجي الشبيه بلون الخزامى، وألاّ ينسل جورباها اللامعان الثمينان.

أرادت أن تبدو خالية من أي عيب. تطلّب منها تجهيز نفسها أكثر من ساعتين. غسلت شعرها وصففته، ثم وضعت التبرج التام بمنتهى الدقة وكذلك طلاء الأظافر، كما ارتدت بحذر الملابس الداخلية الحريرية وأكثر جواربها لمعاناً، ولبست قميصاً ناعمة بلون القشدة. أخيراً أزلقت رايتشل التنورة الضيقة المقلمة فوق وركيها النحيلين، وذراعيها داخل السترة القصيرة حتى الخصر ذات القبة المحفورة التي أبرزت بأناقة جسدها الرشيق. انتعلت حذاء من الجلد الإيطالي لونه مشابه تماماً للون البدلة التي ارتدتها. كما تلاءم حذاؤها مع الحقيبة التي حملتها في يدها، فصار مظهرها مكتملاً. تطلب منها الأمر ما يزيد عن الأسبوعين حتى تجد هذه الملابس. قامت بزيارة كل المحلات الفخمة المخصصة لبيع الألبسة، فلا بد أن تكون ملابسها مناسبة تماماً.

مهما يكن، فالشخص الذي تنوي أن تثير اهتمامه وتؤثر عليه هو ذو مقاييس متطلبة عالية. إنه استثنائي في مقاييسه. يجدر بها أن تعرف ذلك، لأنها فشلت في تحقيق هذا المستوى في إحدى المرات بشكل مروع ومذل. عليها ألا تفشل هذه المرة.

وعدت رايتشل نفسها بأنها لن تفشل هذه المرة فيما مشت متوجهة نحو البابين الضخمين اللذين انفتحا تلقائياً عندما دنت منهما. علمت رايتشل هذه المرة أنها ستتمكن من رفع رأسها عالياً أمام أي امرأة تقارن بها. صحيح أن البعض يفضلون السمراوات القصيرات القامة أو الصهباوات المتبرجات بدلاً منها هي الشقراء الأنيقة النحيلة، لكن إذا

كان المرء يحب هذا الطراز فهي تبدو كاملة. تامة! هذا ما كانت والدتها لتقوله موافقة على ما تفكر رايتشل به.

قبضت الأحاسيس قلب رايتشل، لكنها أخضعتها على الفور، فالمشاعر من أي نوع سوف تكون مميتة خلال هذا اللقاء. إن كانت تأمل بأن تنجح في مهمتها يجب أن تكون هادئة، واثقة ورصينة جداً. إنها هنا من أجل العمل. لاشيء أكثر.

بدأت تخطو من دون وعي عبر بهو المدخل الضخم. أحست بوخز خفيف ينسلّ نزولاً على عمودها الفقري، لكنها تغلبت عليه. هي موجودة هنا لتقترح فكرة ما لاشيء أكثر، وهذا العمل سوف تكون له نتائج مستحبة لكلا الفريقين. اقتراحها سيكون مباشراً وصريحاً تماماً، ولا يتطلب أحاسيس على الإطلاق من أي من الفريقين المشاركين في العملية.

تابعت رايتشل سيرها فوق الأرضية الرخامية الفسيحة نحو مكتب الاستقبال حيث ارتفعت في وسط القاعة أيضاً نافورة مياه أخرى حذقة التصميم. إنه جدار من الماء الجاري بنعومة بالغة إلى درجة أنه بالكاد يبدو كأنه يجري على الإطلاق.

توقفت رايتشل أمام موظفة الاستقبال التي ترتدي ملابس أنيقة، فيما نظرت إليها باستفسار مؤدب. قالت رايتشل: «أنا هنا لمقابلة السيد فارنيستي».

ردت موظفة الاستقبال قائلة: «الاسم، من فضلك».

ومدت يدها أثناء ذلك لتتناول دفتراً لتدوين المواعيد.

أجابت رايتشل من دون أن يرتعش صوتها: «رايتشل فايل».

عبست موظفة الاستقبال، وقالت: «أنا آسفة آنسة فايل، لكن يبدو أن اسمك ليس مدوناً».

تكلمت رايتشل من دون أن تصاب بالفزع، فقالت بتأكيد هادئ: «إذا اتصلتِ بمكتبه وأعطيته اسمي، ستجدين أنه سوف يقابلني».

نظرت موظفة الاستقبال إلى رايتشل غير واثقة، وعلمت هذه الأخيرة سبب ذلك، فوجهت لنفسها ابتسامة ساخرة.

- أنت تعتقدين أنني إحدى عشيقاته. أليس كذلك؟ أنت لا تعرفين ما الذي يجدر بك أن تفعليه لو كنت كذلك.

هل هي موجودة على قائمته الحالية؟ أتراه أعطى أوامره بألا يتم إيصال مكالماتها الهاتفية لو اتصلت أو جاءت إلى هنا شخصياً؟

تحولت الابتسامة الساخرة إلى شعور بالمرارة، فهي تعرف الروتين المعتمد. آه... نعم! إنها حتماً تعرف الروتين.

- لحظة من فضلك.

قالت موظفة الاستقبال ذلك، ثم رفعت سماعة الهاتف.

ضغطت رايتشل شفتيها سوياً. سوف تتحقق من مسؤولة الشؤون الخاصة به، تماماً كما قد تفعل أي موظفة جيدة لدى شركة فارنيستي.

- سيدة والترز؟ الآنسة رايتشل فايل موجودة في مكتب الاستقبال. أخشى أنني لست أرى أي موعد محدد لها في دفتر المواعيد.

سادت لحظة سكوت، ثم...

- جيد جداً، شكراً لك، سيدة والترز.

استنتجت رايتشل من التعابير المرتسمة على وجه المرأة ما أُمرت بأن تفعله: التخلص منها.

كانت المرأة على وشك أن تعيد السماعة إلى مكانها، لكن رايتشل اعترضت تلك الحركة بمنتهى الهدوء، فأخذت سماعة الهاتف منها. ظهر الاعتراض على وجه موظفة الاستقبال، لكن رايتشل لم تعرها أي اهتمام.

- سيدة والترز؟ أنا رايتشل فايل. أرجوك، أعلمي السيد فارنيستي أنني في مكتب الاستقبال. أخبريه...

توقفت رايتشل لفترة وجيزة جداً، ثم تابعت: «... أنني جئت أعرض عليه شيئاً يعتبره قيماً جداً، وشكراً جزيلاً لك. آه! سيدة

والترز... يجدر بك أن تقولي له ذلك على الفور، فخلال ثلاث دقائق سوف أخرج من المبنى، وسوف أسحب عرضي. طاب يومك».

أعادت رايتشل سماعة الهاتف إلى موظفة الاستقبال التي راحت تنظر إليها من دون التفوه بأي كلمة. قالت للمرأة ببرود: «سوف أنتظر هنا».

نظرت رايتشل إلى الساعة في معصمها، وحملت حقيبة يدها، ثم توجهت نحو مجموعة من الأرائك الجلدية البيضاء المحيطة بطاولة دائرية، حيث تم ترتيب صحف اليوم. حملت نسخة من صحيفة التايمز، وباشرت بقراءة الصفحة الأولى.

رنّ هاتف مكتب الاستقبال بعد دقيقتين وخمسين ثانية تماماً من إعادتها سماعة الهاتف إلى موظفة الاستقبال. قلبت رايتشل صفحة الجريدة، وتابعت القراءة.

بعد مرور ثلاثين ثانية جاءت موظفة الاستقبال، فوقفت إلى جانبها قائلة: «السيدة والترز سوف تلاقيك في الطابق الإداري، آنسة فايل».

استقلت رايتشل المصعد إلى الطابق العلوي، عندما انفتحت الأبواب، تقدمت نحو رايتشل امرأة في متوسط العمر أنيقة اللباس، وقد بدا وجهها لطيفاً.

- الآنسة فايل؟

أومأت رايتشل برأسها، فيما خلا وجهها من أي تعابير.

- أيمكنك أن تتبعيني من هنا، أرجوك؟

قادتها المرأة إلى الأمام على طول فسحة مغطاة بسجاد بلون القشدة، تتخلله قطع ضخمة من التماثيل التجريدية. بدا ذلك مهيباً ومؤثراً في النفس. صُمِم المكان حتى يكون مخيفاً مرعباً للمتطفلين الوقحين القليلي الحياء مثلها.

لكن رايتشل جاءت إلى هنا لتجري صفقة عمل. لا شيء أكثر... ولا شيء أقل من ذلك.

قادتها السيدة والترز مباشرة نحو بابين من الخشب. قرعت المرأة على الباب بشكل مميز، ثم فتحت أحد البابين وأعلنت قائلة: «الآنسة فايل، سيد فارنيستي».

خطت رايتشل إلى الداخل، فيما لم يظهر أي أثر للمشاعر في وجهها.

بدا السيد فارنيستي تماماً كما تعهده. لم تغيره فترة السبع سنوات على الإطلاق. لا بد أنه سيبقى طيلة حياته أجمل رجل رأته رايتشل على الإطلاق!

فكرت رايتشل من دون وعي أن الجمال كلمة غريبة جداً لتطلق على رجل ما، لكنها بالرغم من ذلك الكلمة الوحيدة التي تناسب فيتو فارنيستي. إنه جميل بشعره الأسود القاتم، بوجهه المرسوم بأناقة، بعظمتي خديه العاليتين المنحوتتين بدقة، بخط أنفه الناعم وبفكه ذي الحواف المسطحة. أما فمه فكامل كما لو أنه يخص ملاكاً ما، لكن ليس ملاك النور بالطبع، بل ملاك الخطيئة.

استند فيتو إلى الوراء في كرسيه الجلدي. بدا جامداً تماماً فيما ألقى إحدى يديه على سطح مكتبه الأسود.

لم ينهض واقفاً على قدميه ليرحب بها.

سمعت رايتشل القرقعة الخافتة للباب وهو ينغلق، فأدركت أن السيدة والترز أدت واجبها كاملاً.

راقبها فيتو بغموض خال من التعابير من تحت أهدابه البالغة الطول. بدا لا مبالياً مجرداً من المشاعر، فيما ظل ملتزماً الصمت.

في ذاك الصمت سمعت رايتشل في رأسها أول كلمات قالها لها فيتو، كما لو أن الزمن قد تلاشى...

منذ أحد عشر عاماً، كانت رايتشل في الرابعة عشرة من عمرها... كانت فتاة طويلة القامة، خرقاء، بسيطة وعادية. كانت أشبه بمهرة صغيرة لم تبلغ نموها بعد. حصل ذلك خلال الإجازة الصيفية

المدرسية، وخلال أول أسبوع منها. كان يفترض برايتشل أن تذهب لتمضية أسبوعين لدى صديقة لها في المدرسة، إلاّ أن جيني تعرضت لالتهاب في آخر يوم من الفصل الدراسي، فألغى ولداها الدعوة الموجهة إلى رايتشل. أعلمت المدرسة والدة رايتشل بذلك في اللحظة الأخيرة، فأرسلت لابنتها تذكرة سفر لتأتي بها إلى إيطاليا.

لم ترغب رايتشل بالذهاب إلى هناك، فهي تعلم أن والدتها لا ترغب بتواجدها معها. هي لم تعد ترغب بوجود ابنتها معها منذ أن استخدمها إنريكو فارنيستي، فانتقلت إلى أيطاليا لتبقى قريبة منه قدر الامكان. والآن ما عادت تراها والدتها إلا لمدة أسبوع تقريباً في فندق في لندن، يقوم إنريكو بدفع تكاليفه. تعلم رايتشل أن آرلين كانت تسرّ بانتهاء الزيارة حتى تتمكن من العودة لإنريكو.

لكن خلال تلك الإجازة، لم يكن لدى رايتشل أي مكان آخر تقصده، فانتهى الأمر بها في إيطاليا كما يحصل دوماً.

الفيلا التي بناها إنريكو لوالدتها جميلة جداً، تستقر فوق تل يعلو قرية حديثة الطراز مجاورة للبحر على الشاطئ الليغوري، وهي على مقربة من تورين، حيث تقع مصانع فارنيستي.

وجدت رايتشل نفسها مسحورة بجمال المكان بالرغم من عدم رغبتها بالتواجد هناك، فهي لم تكن قد شاهدت البحر المتوسط من قبل. بعد ظهر أول يوم لوجودها هناك، وبعد أن أوصلها السائق الخاص الذي لاقاها في المطار، لم تهدر وقتها، فهرعت نحو بركة السباحة. بدا لها أن الفيلا مهجورة وأن ليس فيها سوى مدبرة المنزل التي لم تكن تتكلم سوى الإيطالية، بالرغم من وجود سيارة حمراء ضخمة أمام مدخل المنزل. افترضت حينها أن والدتها وإنريكو هما حتماً خارج المنزل، فانسلّت ممتنة لتنعم بالمياه الدافئة تحت أشعة الشمس.

وصلت رايتشل إلى جهة المياه الضحلة في البركة بعد أن قطعت

البركة سباحة اثنتي عشرة مرة أو ما يقاربها. توقفت لفترة وجيزة واضعة إحدى ذراعيها فوق الحافة الحجرية للبركة، أما شعرها المبلل فانسدل إلى الوراء على شكل ذيل الفرس مستلقياً فوق إحدى كتفيها. تمهلت لتلتقط أنفاسها قبل أن تستعد لتستدير وتتوجه نحو الجهة العميقة مجدداً، وفي تلك اللحظة أدركت أن الفيلا ليست مهجورة فعلاً. رأت أحدهم يقف عند قمة درج قصير من الدرجات الحجرية. إنه شاب في أواخر فترة المراهقة، ربما في العشرين من عمره. من الواضح أنه إيطالي، فهو نحيل جداً وطويل جداً.

ظل الرجل واقفاً هناك من دون أي حراك. ثم بدأ يسير ببطء نزولاً على الدرج.

كان يرتدي سروالاً بلون القشدة دقيق القصة والتصميم، ويضع إحدى يديه في جيبه، كما يرتدي قميصاً مفتوحة عند العنق بلون القشدة أيضاً، فيما وضع حول كتفيه كنزة بلون الشوفان. نزل الرجل الدرج برشاقة متراخية أوقفت الأنفاس في رئتي رايتشل. انجرّت عيناها بعيداً عن عنقه الطويل فوصلتا إلى وجهه. أحست حينها أن كل عضلة في جسدها تنقبض بشكل لا يحتمل. إنه أجمل وجه رأته على الإطلاق! لامس شعره الأسود القاتم برقة جبينه الأسمر، ولاحظت رايتشل عظمتي خديه المنحوتتين، وفكه وأنفه وفمه ما جعل معدتها تتلوى.

كان الشاب يضع نظارتين شمسيتين غامقتي اللون، فبدا جميلاً جداً ومتألقاً إلى درجة كبيرة كما لو أنه خرج للتو من مشهد من فيلم سينمائي. توقف عند أسفل الدرج على بُعد حوالى المترين من حافة البركة، ونظر إلى رايتشل. أخفت نظارتاه السوداوان عينيه، لكن رايتشل فجأة أحسّت أنها مكشوفة تماماً أمامه.

أتراه يعلم أنه يفترض بها أن تتواجد هنا؟ لم تكن لديها أدنى فكرة عن هويته، لكنها أدركت فطرياً أنه من ذاك النوع من الأشخاص الذين يعرفون من يكونون، إن مظهره وجماله يخطفان الأنفاس، أما أناقته

المتعجرفة فبدت فطرية غير متكلفة. إنه من ذاك النوع من الرجال الذين تتهافت الفتيات عليه، وقد يتقاتلن في سبيل الحصول على التفاتة منه.

أدركت رايتشل حينها بالتحديد أنها هي التي تحظى باهتمامه في تلك اللحظات، فغمرها ذاك النوع من الحرج المريع الذي بزغ عليها فجأة، ولم يعجبها ذلك.

لم يكن سبب ذلك فقط التحذير الذي وجهته لها مدبرة منزلها قبل مغادرتها إلى إيطاليا حيال ولع الرجال الإيطاليين واستحسانهم للفتيات الشابات، ذلك التحذير الذي أخذ يطن في أذنيها، بل لأنها أحست بالخجل الشديد. بغض النظر عمن يكون هذا الشاب، من الواضح أن له الحق الكامل بالتواجد هناك. لكن نظراً إلى وصولها غير المتوقع، فلربما هو لا يعرف بأن لها هذا الحق أيضاً. أسلوب نظره إليها جعلها تشعر بالانزعاج.

قد يكون ثوب السباحة الذي ترتديه أقل ملابس السباحة تألقاً في العالم، فمقارنة مع بعض الفتيات في مثل سنها، كانت هي متأخرة قليلاً في النضج. إلا أن الرياضة التي تمارسها جعلت ذراعيها تمتلئان بالعضلات. أما بالنسبة إلى وجهها، فهي تفترض أن لابأس به، لكنه عادي جداً.

لربما كلمة «عادي» ليست موجودة في قاموس الرجل الذي كان يحدق نزولاً نحوها. هي تعلم تماماً أي نوع من الفتيات قد يواعدهن. إنهنّ فتيات القائمة الأولى اللواتي ترشح منهنّ الجاذبية. إنهن فتيات مذهلات رائعات في كل لحظة من النهار.

هذه الأمور كلها مرّت في ذهن رايتشل خلال لحظات قليلة فقط، وأدركت أنها ليست من الفتيات المدونات على القائمة الأولى، فهي صغيرة جداً بالنسبة إليه، وهي ليست موجودة حتى بالنسبة إليه كفرد من جنس النساء. إذاً ما همها لو اعتقد أن ثوب السباحة الذي ترتديه ليس ساحراً وأن وجهها وقوامها ليسا كذلك أيضاً؟

أما الأمر الهام فعلاً فهو أنه قد يظنها تتطفل على أرضه، أو أنها سائحة غريبة استغلت الفرصة باعتبارها الفيلا مهجورة.

تابع الشاب النظر إلى رايتشل، فيما بقيت إحدى يديه محشورة في جيب سرواله، بينما تدلت يده الأخرى مسترخية. بدت ملامحه غير مقروءة. أتراه ينتظر أن تقول شيئاً ما لتفسر وجودها؟

غمرها الشعور بالاحراج والاحمرار، فرفعت رايتشل يدها المترددة بنوع من التلويح، لكنها أحست بالغباء لحظة تصرفت على هذا النحو، غير أن الأوان كان قد فات على التراجع. قالت رايتشل بغربة: «مرحباً! أنت على الأرجح تتساءل عمّن أكون، لكن...».

لحظة بدأت رايتشل تتكلم أدركت أنها تبدو غبية. إنها تكلمه باللغة الإنكليزية بينما يبدو من الواضح تماماً أن الشاب إيطالي.

قطع الشاب حديثها فاختصره قائلاً: «أنا أعلم تماماً من تكونين».

تكلم الشاب بلغة إنكليزية سليمة تماماً، أما نبرته الإيطالية فلم تسهم أبداً في تليين قساوة كلماته الصريحة الفظة حين تابع: «أنت الابنة اللقيطة لعشيقة والدي».

٢ ــ أريد خاتمك

بعد مرور إحدى عشرة سنة ما زال صوت فيتو خشناً كما كان تماماً، كما أن لكنته الإيطالية بقيت على حالها: غير لينة.

- إذاً قررتِ أخيراً أن تستخدمي آخر ذخيرة لديك.

راحت عيناه تراقبانها من دون أن تظهر فيهما أي تعابير واضحة. لكن عندما استقر تحديقه الثابت اللامبالي عليها، استطاعت رايتشل أن تلحظ ومضة ذهبية في عمق أعماق عينيه.

أحست كما لو أن ومضة الأحاسيس تصوّب نحوها تماماً كرصاصة القناص، وهي مميتة بالقدر نفسه. رأت ذلك اللمعان الذهبي في عينيه مرتين خلال لحظتين فقط.

ظهر ذاك اللمعان مع أول كلمات قالها لها على الإطلاق.

أدركت رايتشل بمرارة أنها لو كانت تمتلك ذرة من غريزة البقاء حينها لحرصت على أن تكون تلك آخر كلمات يقولها لها فيتو أبداً. لكن تلك الفتاة الغبية العديمة الخبرة ذات الأربعة عشر ربيعاً لم تمتلك أي غريزة مماثلة. الغريزة الوحيدة التي تملكها هي واحدة غبية قادتها بطريقة مميتة إلى دمارها الكامل.

طوال سبع سنوات راحت تقمع بلا رحمة أو هوادة أي مشاعر تتعلق بالرجل الجالس أمامها الآن والذي لا يبعد عنها أكثر من ثلاثة أمتار، لكن تلك الذكرى الصاعقة عاودتها من حيث لا تدري. إنها تفضل أن تخسر يدها اليمنى على أن تتذكرها الآن وهنا بالذات.

لا! لا!

أجبرت نفسها على دفع تلك الذكرى جانباً. أنت هنا من أجل أمر واحد فقط. هدف وحيد... مغزى وحيد... صفقة عمل واحدة!

زادت رايتشل من حدة تحديقها به.

لا تشعري بأي شيء. لا تتذكري أي شيء!

جلس فيتو في مكانه بانتظار أن تتكلم. علم أنها سوف تتكلم. ذلك هو السبب الذي دفعه إلى استقبالها، فذلك هو المبرر الوحيد لوجودها المستمر في حقل المعلومات الخاص بذهنه. لا وجود لها في ذهنه إلا في هذا الإطار.

هل أنا موجودة على الإطلاق في ذهنه؟

تسلل هذا السؤال الغدار العديم الجدوى إلى ذهن رايتشل. لا! إنها ليست موجودة أبداً بالنسبة إليه. ليس هي... رايتشل فايل. ليس الشخص الذي هي عليه، روحها، ذهنها، شخصيتها، ما تحبه وما تكرهه. لاشيء يتعلق بشخصها موجود بالنسبة إليه!

بعد مرور أحد عشر عاماً طوالاً ما زالت كلماته تتردد في ذهنها؛ «أنا أعلم تماماً من تكونين. أنت الابنة اللقيطة لعشيقة والدي».

هذا ما هي عليه بالنسبة إلى فيتو فارنيستي. هذا كل ما كانت عليه على الإطلاق بالنسبة إليه وكل ما قد تكون عليه يوماً. بعدئذٍ جاءتها فكرة جديدة تسللت من بئر المرارة القديمة العهد. فكرة جعلتها امرأة شريرة وقحة. سوف تكون أكثر من ذلك بالنسبة إلى فيتو فارنيستي إن أراد أن يتم الصفقة معها.

انشدّت كتفاها إلى الوراء. استقرت نظراتها على وجهه الفارغ اللامبالي، فلم تلحظ أي أثر للأحاسيس في عينيه على الإطلاق.

بدأت تقول: «هنالك شروط...».

احتفظ فيتو بجموده. بدا كأن كل عصب وكل خلية في جسده خاضعين لسيطرته بالكامل. لو أنه لم يفرض هذه السيطرة القاسية على جسده، لاندفع جسده من تلقاء نفسه ليقوم عن الكرسي، ويشق طريقه

متخطياً المكتبة، ليلف يديه حول كتفي المرأة التي تجرأت على الوقوف هنا حتى تعرض عليه الشروط. كان ليهزّها، ويهزّها ويهزّها...

انغلق ذهن فيتو. من المميت أن يسمح لنفسه حتى أن يتخيل تلك الفكرة، خشية أن تسيطر عليه وتصبح أمراً حقيقياً. عوضاً عن ذلك ظل جالساً مكانه بلا حراك البتة وهو يراقبها.

ها هي رايتشل فايل تزحف إلى حياته بعد مرور سبع سنوات! بالرغم من ملابسها الأنيقة هذه، فهو لن ينخدع بمظهرها البراق.

تشرّبت عيناه كل التفاصيل: الشعر، البذلة، الأظافر، القطع التزيينية. وضع فيتو بطاقة سعر على مظهرها بأكمله. خمس مائة جنيه؟ وربما بضع مئات أخرى لو أضاف سعر الحذاء وحقيبة اليد. من أين تراها تحصل على المال؟

طعنه هذا السؤال في رأسه، فسبب له مرارة لا عهد له بها.

أمِن رجال آخرين؟

حسناً...! أرخى فيتو التوتر المفاجئ الذي لا يمكن تفسيره في كتفيه مع تكوّن الجواب في ذهنه. إنها حتماً تمتلك الجينات المناسبة لذلك. لا بد أنها مهنة تجري في العائلة...

في الواقع رايتشل ليست بحاجة إلى جينات محددة لكي تقوم بذلك، فمظهرها الفاتن يكفي وحده. فكّر فيتو أن رايتشل هي في قمة تألقها الجسدي الآن، وهي حتماً تعرف كيف يجدر بها أن تقدم نفسها. أحس بنصل السكين يخترقه مجدداً، لكنه تجاهله.

تأمل رشاقتها الشبيهة برشاقة فرس السباق وشعرها الأشقر الرمادي المنسدل على كتفيها وعينيها الواسعتين الساحرتين وفمها الرقيق...

لا!

أحسّ بشفرة تخترق ذهنه مجدداً. حسناً! إنها تبدو رائعة، متألقة، ساحرة... ماذا إذاً؟ لا علاقة لمظهرها به. لا شيء بخصوص رايتشل فايل يهمه بتاتاً. ما يهمه هو الثمن الذي ستطلبه.

استرخى فيتو بهدوء إلى الوراء في كرسيه، فلم يسمح إلا لأهدابه السميكة بأن تنخفض قليلاً فوق عينيه وهو يسألها: «والثمن الذي تطلبينه هو...؟».

ظهر المقت في صوته، ولم يزعج نفسه حتى بإخفائه. هل تحرك شيء ما في وجهها؟ إنه لا يستطيع أن يؤكد ذلك. لكن رايتشل أجابت بنوعية الصوت الذي تكلمت به من قبل، فقالت: «أنا لم أقل «الثمن» بل قلت «الشروط».

عبرت جسد فيتو موجة جليدية مفاجئة من السخط والغضب. فكر أنها تملك ما يكفي من الوقاحة لكي تأتي إلى هنا ثم تلوي ذراعه على هذا الشكل. هي تدرك أنها قادرة على ذلك. حسناً! طيلة ثلاث سنوات حاول فيتو بكل طريقة ممكنة أن يسترجع ما هو ملكه... ملكه! أخيراً تبين له أن فريق المحامين الذين يعمل لديه عديم الحيلة أمام هذه المسألة. إنهم بلهاء! قال له المحامون إن الهدية هي هدية، وتلك الصفة تعطي حقاً قانونياً للمتلقي. مهما يكن، فوالده منح عشيقته العديد من الهدايا القيمة جداً ومن ضمنها المجوهرات...

قاطعهم فيتو يومها وهو يطلق الشتائم: «اللعنة! هل تقارنون تلك الحلى الرخيصة العديمة القيمة التي منحها لعشيقته مع تلك المجوهرات النادرة التي سرقتها منه؟».

غامر أحدهم بالقول: «من الصعب أن نؤكد أنها فعلت ذلك في قاعة المحكمة، سينيور فارنيستي».

فانقض عليه فيتو بغير رحمة قائلاً: «هذا مؤكد! لا شك أنها سرقتها! والدي لم يكن غبياً! هو لم يمنحها حتى الفيلا، فلماذا بحق الجحيم يمنحها شيئاً ذا قيمة أكبر؟».

- ربما فعل ذلك كعربون... آه...! تقدير... أو... عوضاً عن الـ... آه... الفيلا؟

تجمد فيتو عن الحراك، وسيطرت على وجهه نظرة مميتة. ثم تكلم

بصوت ناعم فتاك جعل ذلك المحامي يتراجع إلى الوراء بشكل تلقائي، حين قال: «أنت تظن ذلك، أليس صحيحاً؟ أخبرني! أي رجل يمنح عشيقته هدية الزواج التي تخص زوجته؟ أي رجل يمنح عشيقته الزمرد الخاص بآل فارنيستي؟».

زمردات آل فارنيستي!

ما زالت رايتشل قادرة على رؤيتها حتى الآن. حصل ذلك منذ تسعة أشهر، يومها ألحت عليها والدتها كي ترافقها إلى المصرف. طلبت الوالدة أن تدخل إلى غرفة صغيرة حيث أحضر لهما مسؤول المصرف رزمة مختومة وضعها على الطاولة بالإضافة إلى وثيقة ما.

ما إن تركهما الرجل بمفردهما حتى فكت والدة رايتشل شريطاً مربوطاً حول الرزمة الشبيهة بالصندوق، ثم فكت الورق البني اللون لينكشف صندوق مجوهرات أمامهما. فتحت والدتها الصندوق لتكشف عن طبقة علوية غير عميقة ثم طبقة أعمق تحتها.

شهقت رايتشل لشدة دهشتها إذ لم تقوَ على منع نفسها من ذلك.

أومض في النور نهر من الأضواء الخضراء. رفعت والدتها عقداً من الصندوق وتراجعت إلى الوراء فيما استقرت نظرة ما على وجهها. إنه تعبير يدل على الرضى والاكتفاء التام. وضعت الوالدة العقد المتوهج في يدها، وأطلقت تنهيدة تنم عن الرضى.

تنفّست رايتشل قائلة: «إنها مذهلة!».

ابتسمت والدتها، وقالت: «نعم، وهي ملكي».

ظهرت رنة غريبة في نبرة صوتها لا تدل فقط على المتعة لامتلاكها كنزاً مماثلاً، بل أكثر من ذلك. أما رايتشل فأدركت ما هي؛ إنه الانتصار!

أما جملتها التالية فبدت منذرة بالسوء أو بوقوع مصيبة ما، إذ قالت: «إنها زمردات آل فارنيستي، وهي ملكي أنا».

ثم ظهر في عينيها تعبير غريب. نظرت إلى رايتشل وقالت: «سوف

تصبح هذه الزمردات لك. . . ميراثك».

استند فيتو إلى الوراء في كرسيه خلف المكتب الواسع الذي يليق برئيس مجلس إدارة فارنيستي للصناعة ومديرها التنفيذي. تعود هذه الشركة في القدم إلى أكثر من ثلاثة أجيال، لكن عائلة فارنيستي تعود إلى زمن أكثر قدماً. كان آل فارنيستي أمراء وتجاراً في عصر النهضة، وبالرغم من أن ثروات العائلة تقلبت عبر العصور، إلاّ أنها الآن بدأت بالتصاعد إلى الأعلى مجدداً بفضل ذهن إنريكو المتوقد الحذق الذي ورثه من أسلافه. والآن ها هو فيتو يدير شركة فارنيستي للصناعة وهي شركة لامعة وذات تأثير في الاقتصاد العالمي.

بالرغم من أن آل فارنيستي يتطلعون إلى الأمام في الحياة، إلا أن فيتو لم ينسَ الماضي. الماضي السحيق الذي أحضر زمردات فارنيستي إلى الوجود في القرن الثامن عشر، ولا نسي الماضي القريب الذي لطّخ شبابه بسبب وجود آرلين غراهام في حياة والده.

وجود تلك المرأة بدا كالسم في حياته وحياة والدته. إنه سم لم يستخرجه كاملاً بعد، وعليه أن يكمل استخراج آخر قطرة منه. والآن ها هي ابنة آرلين هنا، تعرض عليه فرصة استخراجه. . .

تكلم فيتو فيما بدا وجهه خالياً من التعابير قائلاً: «الشروط؟ أتعنين أن أعفيك من الملاحقة القانونية بتهمة السرقة؟».

بدا صوت فيتو غير قابل للنقاش. أزاحت رايتشل ثقل جسدها قليلاً إذا أخذ التوتر في عمودها الفقري يؤلم ظهرها. لكنها أجابت قائلة: «لو كانت هنالك أي مبررات للملاحقة القانونية لقمت بها منذ سنوات، أما الشروط التي أطلب تنفيذها فهي مختلفة تماماً».

راقبت رايتشل وجه فيتو كي ترى ردة فعله، لكن لم تبدُ عليه أي ردة فعل على الإطلاق. لم يظهر عليه حتى الغضب لأنها ذكّرته بعجزه عن استخدام قوة القانون ليستعيد ما يعتبره ملكاً له. لو كان بمقدوره القيام بذلك لما توانى للحظة واحدة، وهي تعلم ذلك جيداً.

في الواقع فعل فيتو ذلك مرة من قبل. غشيت عيني رايتشل غمامة وهي تفكر بذلك. فيتو فارنيستي يحصل دوماً على مبتغاه، وهو يحرص جيداً على ذلك مهما كان الأمر وأياً كان الشخص ولأي سبب كان.

حدقت رايتشل بفيتو. حدقت بالرجل الجالس هناك، والذي أوشك أن يدمرها في أحد الأيام. يومها كانت شابة غبية سهلة الخداع، لكنها لم تعد تمتلك أياً من هذه الصفات الآن. الآن لا يعني لها فيتو فارنيستي شيئاً، تماماً كما أنها لا تعني له أي شيء. لم تعنِ له شيئاً في أي وقت من الأوقات. الآن، هناك شخص واحد فقط تهتم لأمره. أدركت رايتشل ذلك متأخرة جداً، لكنها أدركته أخيراً. لهذا السبب هي موجودة هنا الآن، تقف أمام فيتو فارنيستي، وتعرض عليه الشيء الوحيد الذي يريده منها، الشيء الوحيد الذي يهتم له على الإطلاق. في الواقع، هي لم تكن ذات قيمة أبداً بالنسبة إليه في أي وقت من الأوقات. لم تكن أكثر من مجرد غبية تم استغلالها.

بدت عيناه غامقتين، غامقتين جداً. . . تماماً كالليل.

«كنت قد أقسمت أنك جميل. . . يوم رأيتك مشرقاً.

يا من نورك أسود كالجحيم، ومظلم كعتمة الليل. . .».

مزقتها هذه الأبيات المريرة من قصيدة شكسبير ذات الأربعة عشر بيتاً.

سحبت رايتشل نفسها بالقوة من حزنها، فأجبرت ذهنها على الابتعاد عن هذا التفكير.

فيتو فارنيستي يريد أشياء مختلفة الآن عما أراده يوم كانت فتاة شابة غبية يسهل خداعها. ما يريده فيتو الآن هو بحوزتها. لكن على العكس مما حصل في الماضي، فهي هذه المرة سوف تأخذ منه شيئاً بالمقابل. ليس المال، فالمال ليس نافعاً بالنسبة إليها.

ضاقت عينا فيتو، لكنهما بقيتا خاليتين تماماً من التعابير. لذا ثبتت رايتشل نظرات عينيها على عينيه. طالبها قائلاً: «حسناً؟».

انطلقت نظراته نحوها بثبات، فأحست رايتشل كما لو أن نظراته تلك تملك قدرة ملموسة على التأثير بها. أوضحت له قائلة: «الأمر بسيط جداً. أنا أريدك أن تتزوجني».

للحظة ساد صمت تام مطبق، ثم بدأ فيتو يضحك ضحكاً أشبه بلسعة السوط. أحست رايتشل كما لو أن ضحكته تلك تفصل اللحم عن عظامها وتسلخ الجلد عن جسدها. إنها ضحكة ساخرة ملؤها الازدراء.

ما لبث فيتو أن توقف عن الضحك. انحنى إلى الأمام، فيما ظهر سمّ أسود مميت في عينيه، ثم قال مستهزئاً: «في أحلامك!».

أحست رايتشل كما لو أن صوته يلسع جسدها، فأجبرها على الإقرار بحقيقة ما قاله. في ما مضى كان زواجها من فيتو فارنيستي بمثابة حلم يتحقق. لكن بدا كأن ذلك حصل في حياة أخرى، عندما كانت هي شخصاً مختلفاً. نعم. كانت ساذجة جداً إلى درجة أنه كان يجب أن تعلق على صدرها إشارة تحذيرية تعلن عن غبائها. أما في ما يتعلق بفيتو فلم يكن هنالك أي تحذير. ما من شيء نبهها إلى مدى الخطورة المميتة التي يمكن أن يشكلها فيتو فارنيستي بالنسبة إليها.

بعد ذاك اللقاء المريع الأول بينهما بالقرب من البركة عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، ظنت رايتشل أنها لن تراه مجدداً. بدت والدتها شديدة السخط عندما اكتشفت وجود فيتو في الفيلا بعد عودتها من غداء مطول مع إنريكو، أما والد فيتو فلم يبدُ مسروراً بدوره.

يومها بقيت رايتشل في الأسفل بالقرب من بركة السباحة حتى بعد سماعها صوت السيارة التي وصلت إلى الفيلا. افترضت أن والدتها عادت برفقة إنريكو، لكنها لم تقدر على تحمل تبادل الاتهامات الغاضبة وتلك الأصوات العميقة المترددة من داخل المنزل، والتي بلغت أعلى ذروتها بزئير وحشي صادح لتلك السيارة الحمراء التي انطلقت مسرعة صعوداً على الطريق الساحلية الوعرة الشديدة

الانحدار. بعد فترة قصيرة جاءت والدة رايتشل تبحث عنها، فضربت الدرج نزولاً بكعبي حذائها العاليين، فيما بدت متوترة شاردة الذهن، وقد غطت وجنتيها لطختان من اللون الأحمر ظهرتا بوضوح تحت ذاك التبرج التام الذي وضعته. والدتها التي كانت حينها في الرابعة والثلاثين من عمرها، كانت تبدو أصغر سناً حتى ليظنها من يراها أصغر بحوالى العشر سنوات عن سنها الحقيقية. أما اليوم، فالتقدم في السن يظهر عليها بوضوح.

شعرت رايتشل بنفسها مجبرة على أن تسأل: «هل أنت بخير، أمي؟».

أصدرت والدتها صوتاً من حلقها يدل على نفاد الصبر، ثم قالت: «كان فيتو هنا، ينشر نفوره المعتاد! إنريكو غاضب، وهذا أمر طبيعي. إنه موقف صعب».

سألت رايتشل: «من هو فيتو؟».

بالرغم من أنها واثقة تماماً أنها تعرف عمن تتحدث والدتها.

- ابن إنريكو. قاد سيارته إلى هنا حتى يُعلم والده بأن والدته غادرت متجهة إلى الشاليه الموجود في الجبل، وقد انتابتها إحدى تلك النوبات العصبية! هل يظن فيتو جدياً أن إنريكو سوف يهرع خلفها؟ لم يمضِ على وجوده هنا سوى يومين... ذاك الصبي لا فكرة لديه البتة عن مدى كدّ والده في العمل!

زمّت والدة رايتشل فمها، وتابعت: «الشيء الوحيد الذي يعرفه فيتو هو إنفاق المال والتمتع بحياة مترفة في روما. إنه نموذج للفتى اللعوب!».

احتدت عينا والدة رايتشل فجأة، وتابعت: «هل قابلته قبل أن نعود أنا وإنريكو؟».

شعرت رايتشل بالكرب يلفها، وأحست باللون الأحمر يغمر وجهها، فأقرت بصوت متلعثم: «إنه... مرّ بالقرب من بركة السباحة».

تصلّب وجه والدة رايتشل فقالت: «حسناً! على الأقل هو لن يعود الآن. ذهب ليمسك بيد والدته التي لا تتوقف عن النواح. من المضحك أن يثير الجلبة بسببها!».

تساءلت رايتشل، هل سمعت نبرة دفاعية في صوت والدتها، أم أن ما قالته هو مجرد اتهام؟ مهما كان، فذلك بكل بساطة جعلها تتمنى لو أنها على بعد مليون ميل من ذلك المكان.

بذلت رايتشل قصارى جهدها حتى تبقى بعيدة عن طريق إنريكو ووالدتها، فكانت تتجه إلى الشاطئ الصغير الخاص الذي يقع تحت الفيلا لكي تسبح في البحر أو تأخذ حماماً شمسياً فيما تطالع كتاباً بالقرب من البركة.

يبدو أن والدتها وإنريكو كانا يمضيان غالبية وقتهما في الخارج وقد سرّها ذلك، فهي لم تشعر بالارتياح بحضور إنريكو أو بحضور والدتها. بدا إنريكو رجلاً غير ودود في متوسط العمر وذو بنية صلبة. هو شخصية رئيسية يدور حولها نشاط المنزل بأسره، بما في ذلك بشكل أساسي والدتها.

منذ ست سنوات كان إنريكو فارنيستي يحضر مؤتمراً في برايتون، فدخل إلى المتجر الفخم الذي تديره والدتها في منطقة لاينز لكي يشتري شيئاً ما لصديقته في ذلك الحين، لكنه قرر أن آرلين غراهام هي أفضل من تلك الصديقة، فأقنعها أن ترافقه لتصبح إحدى مساعداته في العمل. بعد ذلك مباشرة وضبت رايتشل أغراضها، وتم إرسال رايتشل إلى مدرسة داخلية باهظة التكاليف لكي تبتعد عن طريقه. أما والدة رايتشل فانتقلت بسرعة إلى إيطاليا.

عرفت رايتشل أن والدتها أصبحت أكثر من مجرد مساعدة لإنريكو فارنيستي، رئيس شركة فارنيستي الصناعية. صارت آرلين تقيم في فيلته الفخمة بحجة إنجاز الأعمال بسرعة، وتمضي إجازاتها في اليخت الخاص به، كذلك علمت رايتشل أنها بفضل إنريكو فارنيستي كانت

تقصد مدرستها الداخلية المتميزة، وبفضله أيضاً أصبحت العمة جين تقيم في بيت مؤلف من طابق واحد واسع الشرفات خارج برايتون، ولم تعد تقيم في شقة في مجمع سكني حيث كانت تعيش من قبل. أما حين كانت رايتشل تنزل مع والدتها في فندق في لندن، فإنريكو فارنيستي هو الذي كان يدفع تكاليف الفندق كما يوفر لها المال الذي تنفقه. أما والدتها فلم تبدُ يوماً منزعجة بسبب شذوذ هذا الارتباط بينهما.

- هذه الأمور مفهومة في هذا البلد.

أضافت آرلين مرتجلة: «بما أن إنريكو يحتاج إلي في تنظيم مختلف شؤونه، لذا من الطبيعي أن أبقى بقربه. إنه تدبير مقبول تماماً، ولا أحد يسيء الظن به».

بدا كلامها مقنعاً جداً إلى درجة أن رايتشل صدقتها في ذلك الحين، إلى أن قام فيتو بسلبها ذاك الوهم مستخدماً حفنة من الكلمات البذيئة العابرة: إنها كلمات بشعة بقدر ما هي صحيحة. بحق الله! أما كان يجدر بذلك أن يكون تحذيراً كافياً؟

لكن بشاعة تلك الكلمات لم تكن كافية حتى تجعلها تنسى جمال الرجل الذي قال هذا الكلام. بدءاً من ذلك اليوم فصاعداً أخذت رايتشل تخفي سراً معيباً مخزياً، فقلبها المراهق أخذ يقارن كل رجل يصادفه بفيتو فارنيستي، سواء كان ذلك الرجل حقيقياً أم مجرد شخصية ظهرت على شاشة التلفزيون. ومع مرور السنوات ظلت رايتشل غير قادرةأبداً على إزالة تلك الصورة. وكأنما صورته انطبعت على شبكية عينيها عندما سار نزولاً على ذاك الدرج برشاقة وليونة، كما لو أنه أمير وسيم لا أحد يضاهيه وسامة وتألقاً. لم تخبر رايتشل أي شخص بسرها هذا، وبقي فيتو فارنيستي بطل أحلامها الممنوعة.

إنه سرّ اضطرّت إلى دفع ثمنه بمرارة، وما زالت تدفع ثمنه في أحلام تحولت إلى كوابيس. لا بد أنها تعيش أحد هذه الكوابيس الآن... الوخزة القاتمة المميتة لعيني فيتو فارينستي بعدما أخبرته

بشروطها حتى يستعيد زمردات فارنيستي أصابتها في الصميم.

تراجع فيتو إلى الوراء في كرسيه، ثم قال بصوت ناعم مهلك: «كوني واقعية».

استطاعت رايتشل أن تشعر بالازدراء والسخرية يجلدانها كالسوط. رأته وهو يمد يده ذات الأنامل الطويلة ليفتح أحد أدراج المكتب، ويخرج منه دفتر شيكات جلدي. فتحه بضربة واحدة وأمسك قلم حبر من الذهب، ألقاه فوق الشيك بعد أن أزال غطاءه.

- المال. تلك هي العملة الوحيدة التي تتعامل بها النساء أمثالك وأمثال والدتك.

ضاقت عينا فيتو، واستطاعت رايتشل أن تشعر بالغضب العارم المكبوت داخلهما.

تابع كلامه قائلاً: «لكن لا تفكري لحظة واحدة بمحاولة ابتزازي. يمكنك أن تحصلي على مليون يورو مقابل الزمردات من دون أي زيادة. اقبليها أو ارفضيها».

بدأ فيتو يدون واثقاً، فأخذ الحبر الأسود يجري بسلاسة على الشيك.

جاء صوت رايتشل رصيناً، متمكناً جداً: «لن أبيع!».

لم يتمهل فيتو بالكتابة، بل تابع بكل بساطة، فخربش بغير اكتراث «مليون يورو» في المكان المطلوب.

- أنت لم تسمعني. أليس كذلك؟

قالت رايتشل ذلك، لكن... هل بدا صوتها أقل ثباتاً؟ لا. لن تسمح له بأن يكون كذلك. يجب عليها ألا تسمح له بذلك. الكثير من الأمور تعتمد على محافظتها على السيطرة التامة على نفسها.

نظر فيتو إلى الأعلى، فيما بدت نظراته وقحة مزعجة إذ قال: «سمعتك تقولين نكتة ذات ذوق سيء جداً، لكنني لم أظن حتى إنك قادرة على النزول إلى هذا المستوى السافل».

تابع كتابة الشيك، فوقع عليه بيده السمراء التي تنساب بسهولة، ثم مزق الورقة من دفتر الشيكات ودفع بها عبر المكتب نحو رايتشل.

- وضعت تاريخ قبض المال بعد ثلاثة أيام من اليوم. أحضري لي الزمردات غداً، وعندها يمكنك أن تقبضي الشيك.

لم تنظر رايتشل إلى الشيك مطلقاً، عوضاً عن ذلك تكلمت بصوت صلب مشدود قائلة: «لم تكن نكتة. إذا رغبت باستعادة الزمردات عليك أن تتزوجني. هذا كل شيء. اقبله أو ارفضه».

لم تقوَ رايتشل على مقاومة رغبتها بأن تقذفه بكلماته نفسها. ساعدها ذلك ولو قليلاً على تخفيف التوتر بدرجة واحدة على الأقل.

أنزل فيتو قلمه بحركة بطيئة متعمدة، ثم وبحركة مساوية في البطء والتعمد انحنى إلى الأمام، فنطق بصوت خافت فتاك قائلاً: «أفضل أن أتخذ لنفسي ضفدعة كزوجة بدلاً منك».

استقرت عليها عينان مظلمتان هازئتان، فسال على وجه رايتشل لون باهت لطخ عظمتي خديها.

- أنا لا أقترح زواجاً حقيقياً. أنا بكل بساطة أرغب بأن أضع خاتم زفافك في إصبعي لفترة محدودة من الزمن.

حاولت رايتشل أن تحدق به، فتقابل نظراته الباردة المستوية بإحدى نظراتها الثابتة.

جاءها رد فيتو بنبرة جافة: «أعطيتك جوابي للتو. هل تنتقين ما تريدين سماعه فتجعلين هذا عيباً آخر من عيوبك؟ هل تتخيلين أنني قد أتزوجك أنت تحت أي ظروف؟».

بدا وجه رايتشل مشدوداً جداً إلى درجة شعورها بالألم بدءاً من فكها وصولاً إلى عظمات جمجمتها.

- أنا أعرف رأيك بي، فيتو. لست بحاجة لأن تقوله بالكلام.

أومضت عبر وجه فيتو ابتسامة عدائية جارحة.

- إذاً بما أنك تعرفين، فأنا أشك بمدى صحة قدراتك العقلية التي

دفعت بك للمجيء إلى هنا بهذا الشكل، فتجرؤين على محاولة بيعي شيئاً لم يكن أبداً ملكاً لوالدتك الساقطة حتى تأخذه!

تلوت في وجه رايتشل الأحاسيس العميقة المعذبة.

- لا تتحدث عنها بهذا الشكل!

قذفت رايتشل هذه الكلمات نحوه، أما وجه فيتو فازداد اسوداداً كما لو أن الليل أطبق عليه.

- والدتك أطبقت براثنها الجشعة المتملكة على والدي، ولم تسمح له أن يفلت منها. جعلت من حياة والدتي بؤساً مستمراً.

أحست رايتشل أن كلماته وصوته تجرحها كالسكين الحاد، فأغمضت عينيها تصدياً لها. كيف يمكنها أن تنكر ما قاله للتو؟ كيف يمكنها أن تجادل وترد ما قذفه نحوها للتو؟ مع ذلك لا يمكنها أن تسمع حديثاً عن والدتها بتلك العبارات السيئة. خنقها ذلك الشعور، وتراءت لها في ذهنها صورة لآخر مرة رأت فيها آرلين، فاضطرت إلى فتح عينيها حتى تطرد تلك الصورة. لكنها لم تقوَ على طرد العذاب الأليم الذي تزامن مع تلك الرؤية. رفعت رايتشل يدها بحركة سريعة، كما لو أنها تريد أن تدفع بعيداً تلك المشاعر التي تمزق أعماقها. بذلت جهداً واضحاً لتتحكم بأحاسيسها ولتبقي هذا الحديث حيث يجب أن يكون؛ على مستوى الأعمال لا أكثر.

قالت رايتشل لتصرف ما قاله: «هذا لا علاقة له بالموضوع. المسألة الوحيدة التي نناقشها الآن هي إن كنت تريد استعادة زمردات فارنيستي وفقاً للشروط التي وضعتها للتو أم لا. أنا أريد خاتم زواجك في إصبعي لمدة لا تتجاوز بضعة أشهر...».

قاومت رايتشل حتى تبقي صوتها ثابتاً وهي تتكلم، فتابعت: «... وهذا كل شيء. يمكنك أن تستعيد زمرداتك الثمينة يوم زفافنا. أنا لا أريد مالك».

عضت رايتشل شفتها بعد التلفظ بالجملة الأخيرة.

حدق بها فيتو، فيما ظلت تعابير وجهه مخبأة. فجأة صار أسلوب نظره إليها أكثر سوءاً. في البداية بدت عيناه غامقتين بدافع السخط الشديد، أما الآن فبدا وجهه بارداً من شدة المقت. أحست رايتشل أن نبضات قلبها تتسارع، أما معدتها فغاصت إلى الأسفل.

سألها فيتو بهدوء: «لماذا؟».

تحركت رايتشل بصعوبة. ما الذي يجري؟ لماذا ينظر إليها بهذا الشكل؟

- لماذا... ماذا؟ لماذا لا أريد المال مقابل الزمردات؟

- لا. لماذا تتخيلين أنني قد أفكر، ولو لجزء من الثانية، بعرضك لي بالزواج؟

أجابته من خلال أسنانها المشدودة على بعضها: «لأنك تريد استعادة الزمردات، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستمكنك من ذلك».

التمع شيء ما في عينيه. بحركة واحد رشيقة سريعة نهض على قدميه، ثم طارت يداه إلى الأعلى: «كفى! تمادى هذا الغباء بما فيه الكفاية! أنا مستعد لأن أشتري الزمردات، لكنني لست مستعداً لأن أضيع وقتي للحظة أكثر بسبب هذه المهزلة. لذا، خذي الشيك أو اخرجي من هنا».

تمايلت رايتشل من شدة قوة غضبه.

- إن خرجت الآن، فأنت لن تستعيد زمرداتك الثمينة إلى الأبد!

حاولت أن ترشقه بكلماتها بقوة، لكنها خرجت مرتعشة من فمها.

أجابها فيتو بكلمات حارقة: «الأبد فترة طويلة. في مرحلة ما سوف تبيعينها، فقط لكي تعرفي قيمتها. إن لم تبيعيها لي أنا، فما همي؟ سوف أشتريها من أي شخص تبيعينها له».

- أمي لن تبيعها أبداً!

اندفعت إلى ذهن رايتشل صورة والدتها عندما تركت الزمردات تنساب في يديها، بينما حملقت بها دلالة على انتصارها لامتلاكها الزمردات. فأضافت رايتشل: «أبداً».

- إذاً يمكنك أن تدفنيها معها في قبرها!

ابيض وجه رايتشل فيما انسحب الدم منه، وأخذ الشعور بالدوار يقرع في أذنيها.

همست بصوت أبح: «أيها اللقيط».

ظل وجه فيتو بعيداً عن الرضوخ والليونة، كما لو أنه مصنوع من رخام جامد. قال لها: «لا، فتلك هي أنت. أتذكرين؟».

أنهت هذه الكلمات نقاشهما، وقضت عليها تماماً.

استدارت رايتشل على أعقابها مخدرة، فسارت متجهة نحو البابين المغلقين اللذين بدوا فجأة وكأنهما على بعد مئات الأمتار عنها. غمرتها رغبتها بأن تهرب وبأن تخرج من هنا، لكن عندما وصلت إلى الباب وجدت آخر أثر للشجاعة، فأمسكت بمقبض الباب، ثم استدارت وقد بدا وجهها شاحباً تماماً، فقالت: «فلتهترئ في الجحيم، فيتو فارنيستي!».

استدارت من جديد وفتحت البابين بقوة، ومشت إلى الخارج. استطاعت رايتشل أن تصل إلى المصعد قبل أن تلتوي رجلاها تحتها، فاضطرت أن ترتمي على الحائط البرونزي للمصعد طلباً للدعم.

لقد أفسدت الأمر... أفسدته تماماً!

فشلت فكرتها الجامحة الغبية المجنونة إلى أقصى حد وبشكل بائس. غمرها الشعور باليأس، فيما انفتحت الأبواب مجدداً أمام طوفان من الحزن أغرقها.

* * *

وقف فيتو في مكتبه للحظة مطولة أخيرة، فيما بدا وجهه متصلباً. السخط الذي يشعر به بدا غامراً جداً إلى درجة أنه ظنه قد ينفجر في

داخله، لكنه لجمه بحزم وبسيطرة صلبة.

كيف تجرأت على القدوم إلى هنا؟ جاءت إلى داخل مكتبه ببرودة ووقاحة لتملي الشروط عليه حتى يستعيد ما هو ملك له؟ ويا لها من شروط...!

ضاقت عيناه بغضب شديد بارد غير مصدق.

هل تصورت رايتشل أنه قد يولي أقلّ اعتبار لما طالبته به؟ أيعقل أن تكون مجنونة إلى هذا الحد؟ دخلت إلى هنا فجأة بعد مضي ثلاث سنوات من وضع آرلين غراهام مخالبها المتمكنة على خزنات آل فارنيستي، وهي تظن أنه فعلاً قد يأخذ بعين الاعتبار ثمناً مماثلاً مقابل زمردات فارنيستي المسلوبة، هذا دعك من قبوله لشيء مماثل.

ولِمَ الآن؟ هل تمرّ هي ووالدتها بأوقات عصيبة الآن؟ حرص فيتو على أن تأخذ آرلين غراهام أقل قدر من الغنائم عندما طردها بعد وفاة والده، لكن المرأة سحبت ما يكفي من الأموال لسنوات. جند فريق المحامين الخاص به ليحاول استعادة الزمردات التي تمكنت آرلين من حملها إلا أنهم فشلوا في ذلك. لكن سره أنه أخرجها أخيراً من إيطاليا. لم يعرف، وهو لا يأبه إلى أين ذهبت. يحتمل أنها اتخذت لنفسها حامياً آخر، لكنه يشك بذلك، فصباها ولى، ولم تعد متألقة كما كانت من قبل.

جالت في ذهنه فكرة أخرى لافحة: أتراها حولت ابنتها إلى المسار نفسه؟ أتراها كالدودة الطفيلية تمتص المال من الرجال الأثرياء مقابل خدمات حسية؟ إنها حتماً ترتدي ملابس أنيقة كما لو أن رجلاً يدفع ثمن مظهرها...

أحسّ فيتو بشيء ما يطعنه لدى تفكيره بهذه الصورة لفترة وجيزة جداً، فصرفها من ذهنه حالاً. عوضاً عن ذلك وجد نفسه يضغط على زر الهاتف الداخلي مكلماً مساعدته الشخصية.

- المرأة التي غادرت مكتبي للتو... الحقوا بها.

٣ ـ كيف تشتري الأمل؟

أدارت رايتشل المفتاح في القفل، ودخلت إلى شقتها. أحست بفيض من المشاعر الغامرة، فهي ما زالت ترتعد بسبب لقائها مع فيتو فارنيستي. بدا الأمر أكثر سوءاً مما تصورته، بالرغم من أنها كانت تخشى هذا اللقاء منذ إدراكها أنها سوف تذهب لمواجهته، إذ راح الخوف يتزايد في داخلها طيلة الأسابيع الماضية. انهارت على السرير، فارتخى تحت وزن جسدها، لكنها لم تلحظ ذلك. إنها لا تهتم للحالة البائسة للغرفة المستأجرة التي تقيم فيها، فقد توقفت عن ملاحظة وضعها الكريه منذ فترة من الزمن. على الرغم من أنها ما زالت تفتقد إلى شقتها الصغيرة ذات الديكور الأنيق، وهي شقة تضم غرفة نوم واحدة، وتقع في إحدى ضواحي لندن، إلا أنها ليست نادمة على بيع تلك الشقة أبداً. اضطرت رايتشل إلى التخلي عنها، وهذه نهاية الموضوع. أمر واحد فقط يقلقها الآن، وقد أقلقها خلال الأسابيع الخمسة الماضية: أن تجعل فيتو فارنيستي يتزوجها.

هل اعتقدت فعلاً أنها سوف تحظى بفرصة للنجاح في مبتغاها؟ حدقت بكآبة أمامها. بدت كل لحظة مؤلمة من ذاك المشهد المروع الذي ظل يعيد نفسه داخل رأسها كما لو أنه اسطوانة لا تتوقف.

تلوت معدة رايتشل من شدة الألم. أدركت أن يديها ما تزالان تقبضان بحزم على حقيبة يدها، فأجبرت نفسها على فكهما، ورمت الحقيبة على غطاء السرير الرث، ثم نظرت نحو السجادة البالية. بدا الأمر بأسره من دون جدوى. لا جدوى من تلك المحاولة الغبية

المؤسفة بأسرها. هذا المخطط الغبي المضحك لا أمل منه. كيف تراها استطاعت أن تصدق أنها قد تنجح، وأن فيتو فارنيستي قد يوافقها على اقتراحها بالزواج كي يستعيد زمردات الثمينة؟ كيف تصورت أنه سيوافق على أمر بمثل هذا الغباء وهذا الجنون، وأنه سيرضى بإقامة أي نوع من الاحتفالات للزواج منها، بغض النظر عن كون ذلك الزواج مؤقتاً ولفترة محدودة؟ حتى استعادة زمردات فارنيستي لا تستحق تضحية كهذه من قبله.

لا بد أنني مجنونة حتى أفكر بذلك! فكرت رايتشل فيما أغمضت عينيها لشدة عذابها، لا... هي ليست مجنونة... إنها يائسة فقط. يائسة بما فيه الكفاية لكي تفعل أي شيء حتى تُسعد آرلين.

تآكلها الألم، كما لو أنه بركة هائلة تغمرها، تغرقها، وتغسل كل جسدها. إنها غير قادرة على إيقاف ذلك الألم، وهي لا تحاول حتى أن تفعل ذلك هذه الأيام. لأنها لو حاولت، فلن ينجح الأمر.

نهضت رايتشل على قدميها مجدداً. مدت يدها، وتناولت حقيبة يدها، فاستخرجت هاتفها النقال. إنها تعرف الرقم عن ظهر قلب، لذا طلبته بشكل آلي. عندما أجابها الطرف الآخر، نطقت الكلمات بصورة آلية أيضاً: «مرحباً! أنا ابنة آرلين غراهام. كيف حالها؟».

انتظرت رايتشل برهة، ثم جاءها الرد بالعبارة الحذرة المعتدلة نفسها كالعادة. أومأت رايتشل وهي تتمتم شكرها، وأقفلت الخط.

مستقرة... لا تغيير... هذا أفضل ما يمكن توقعه. تلك العبارات المتكررة حفرت في رأسها، لكن أياً منها ليست كافية لإخفاء العبارة الوحيدة التي تشكل الحقيقة بخصوص والدتها؛ إنها تموت!

غمرها الاحباط، فضغط عليها إلى درجة أحست معها أنها بطيئة الحركة مرهقة وهي تتحرك في أرجاء غرفتها الضيقة. قامت رايتشل بحذر لتخلع بذلتها المفرطة الأناقة الغالية الثمن، فرتبتها بحذر داخل منطقة تعليق الثياب المغطاة بالستائر، عندما خلعت رايتشل القماش

الجميل عن جسدها، أحست بشعور آخر يتملكها؛ إنه الاحباط. كما أحست بالمرارة لأنها هدرت الكثير من المال على مصروف لا جدوى منه كهذا مع شدة حاجتها لذلك المال. كان من الأجدر أن توفره نظراً إلى أن صرف المال لم يجد نفعاً في هذا المشروع. هل اعتقدت فعلاً أنها لو بدت مناسبة للعب دور المرأة الثرية، فهي سوف تقنع فيتو فارنيستي بقبول شروطها المضحكة؟ كيف تراها تصورت حصول ذلك؟

كوني واقعية! هذا ما قاله لها فيتو ساخراً، وهو على حق. لا بد أنها أطلقت العنان لنفسها في خيال مثير للشفقة باعتقادها أن زمردات فارنيستي ستشكل حافزاً كافياً يدفع فيتو لمجاراتها.

حسناً! الأمر بأسره يدل على الغباء... الأمر بأسره. بوجود الزمردات أم بدونها.

كم هو عدد المرات التي ينبغي أن يقول لك فيها فيتو فارنيستي الأمور البغيضة قبل أن تتعلمي درسك بخصوصه؟

لو أنها امرأة ذكية لحرصت على أن تكون أول إهانة يقذفها بها عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها هي آخر إهانة يوجهها لها. لو أنها أكثر تحلياً بالمنطق لما منحت فيتو فرصة السخرية منها مجدداً. فكرت رايتشل بوحشية أنها غبية إلى درجة دفعتها إلى القيام بتصرف تستحق اللوم عليه، فقد أطلقت العنان لنفسها في قصة وهمية مضحكة.

تسارعت الذكرى خلال ذهنها كما لو أنها موجة كاسحة أغرقتها، فأخذتها مرتعدة مرتعشة إلى الماضي الذي ما يزال يبدو كاللعنة في حياتها بعد مرور كل هذه السنوات.

يومها كانت في الثامنة عشرة من عمرها. يا له من عمر خطير... عمر الأحلام والأوهام... عمر الحكايات الخيالية. بعد انتهاء الامتحانات المدرسية سُمِحَ لطلاب صف التخرج بتمضية أسبوعين بعيداً عن المدرسة خلال فصل الصيف كمكافأة. اصطحبتها صديقاتها جيني وزارا في رحلة بعيدة معهما. أعلمتا رايتشل بفرح أنهما سوف

تمضيان هذين الأسبوعين في روما، في الشقة التابعة للشركة التي يعمل فيها والد جيني. شعرت رايتشل بالقلق والخوف، إلا أنها شعرت أيضاً بالحماسة. بالرغم من أنها كانت إحدى أكبر الفتيات سناً في صفها، إلا أنها كانت أقلهنّ دهاء وخبرة في الحياة.

لم تخبر رايتشل والدتها شيئاً عن الرحلة. على أي حال، آرلين كانت تقوم برحلة مع إنريكو في اليخت الخاص به انطلاقاً من شواطئ الريفييرا الفرنسية بحسب ما ذكرته في آخر بطاقة بريدية أرسلتها.

بعد سنوات من التصرف كطالبة نموذجية مثالية في تلك المدرسة الداخلية، أحست رايتشل بعدم القدرة على المقاومة. أخذت تتوق إلى شيء أكثر من مجرد المذاكرة والرياضة. تاقت إلى التشويق، المغامرة، الرومنسية. أحست بالبرودة تتسلل نزولاً على عمودها الفقري ما إن عاودتها هذه الذكرى. كانت تتوق إلى الرومنسية، لكن ما وجدته كان شيئاً مختلفاً تماماً... ليتني لم أذهب إلى روما. ليتني لم أقصد ذاك الحفل ليلة وصولنا. ليتني لم ألتقِ فيتو فارنيستي. ليتني... ليتني... ليتني...

لكنها ذهبت. يومها ارتدت أحد فساتين السهرة الخاصة بجيني، وهو فستان طويل مكشوف عند الكتفين، أما وجهها وشعرها فاهتمت بهما زارا. انساب شعرها شلالاً ذهبياً فوق ظهرها، أما عيناها فبدتا واسعتين. بدت رايتشل فايل مختلفة تماماً عن الطالبة المتزمتة التي يعرفها الجميع. يومها اعتقدت أنها تبدو مميزة جداً، ناضجة جداً، متألقة جداً. لكنها بدت في الواقع كالطفلة التي تمارس الألاعيب.

لو أنني بكل بساطة لم أذهب إلى ذاك الحفل... لكنها ذهبت، ولحظها السيء، ذهب فيتو فارنيستي إلى هناك أيضاً. يومها لم يتردد في استغلال الفرصة التي قدمتها له على طبق من الغباء وسهولة الانقياد وهي في الثامنة عشرة من عمرها. لم تكن رايتشل تمتلك أي دفاعات على الإطلاق ضد فيتو فارنيستي وهي في الثامنة عشرة من عمرها.

جل ما احتاج لأن يفعله فيتو هو أن ينظر إليها مظهراً تلك الابتسامة الساحرة التي سلبت عقلها. أما عيناه الغامقتان فاكتسحتا كيانها، وأخبرتها نظراته الساحرة أنها تعجبه. أمضى فيتو الحفل بأكمله إلى جانبها، أما بالنسبة إليها فكان هو الشخص الوحيد الموجود في تلك الغرفة. عرفته رايتشل على الفور، لكن لم يبدُ أنه عرفها. أدركت رايتشل أنها تغيرت كثيراً خلال السنوات الأربع السابقة. لا بد أنها تبدو مختلفة تماماً عن تلك الفتاة الخرقاء ذات الأربعة عشر ربيعاً التي رآها ترتدي لباس سباحة. تلك الفتاة التي لمحها لفترة وجيزة فصرفها ساخراً بكل فظاظة. فضلاً عن ذلك فهي تحمل اسم عائلة والدها لا اسم عائلة والدتها. هل تراه عرف أبداً ما هو اسمها الأول؟ تساءلت رايتشل إن كان يجدر بها أن تطلعه على هويتها، لكن مع انقضاء تلك الأمسية علمت أنها لا تستطيع فعل ذلك. لا يمكنها أن تخاطر بأن يصرفها بتلك الفظاظة واللؤم اللذين استخدمهما منذ أربع سنوات.

اصطحبها فيتو بخفة بعيداً عن الحفلة بسيارته القوية الرياضية المكشوفة، وتجولا في أرجاء روما ليلاً. بدت رايتشل مأخوذة بجمال المدينة الأزلية وسحرها. أذهلها الدرج الإسباني المكتظ جداً بالسياح بغض النظر عن الوقت المتأخر، وأعجبها الفياكورسو والبانثيون، كذلك قاد فيتو السيارة نحو الساحة الرومانية العامة الأثرية، ومرّ سريعاً بالقرب من كتلة الكوليزيوم المشؤومة المهيبة المرعبة.

لكن لم تكن روما وحدها هي التي أسرتها، إذ كثيراً ما انحرفت نظراتها النهمة نحو فيتو فارنيستي، غير مصدقة بأن الفتى الذي احتل خيالها لسنوات أصبح هنا الآن، إلى جانبها.

افترضت رايتشل أنها لن تراه مجدداً عندما أنزلها أخيراً أمام شقة جيني بعد منتصف الليل، لكنه جاء صباح اليوم التالي أثناء موعد الفطور، فخطفها مجدداً لكي تشاهد روما في ضوء النهار.

أظهرت جيني وزارا حماسة فائقة لأجلها. فقامتا بترتيب مظهرها

مجدداً على أكمل وجه. ومجدداً حظيت رايتشل بنعمة أن ترى فيتو فارنيستي يبتسم لها، وهي تعلم بأنها جميلة تسرّ ناظريه بالرغم من صغر سنها ومن كونها إنكليزية، وبالرغم من افتقارها إلى الدهاء والحكمة.

بدا الأمر أشبه بقصة خرافية. حظيت رايتشل بأسبوعين جميلين مميزين رائعين حيث حصلت على فيتو لنفسها. خلال هذين الأسبوعين شعرت بالدفء يغمر قلبها، كما لو أنها زهرة تتفتح تحت الشمس. بدا كل شيء حولها محاطاً بلمسة من السحر. راحت رايتشل تحدق مدهوشة نحو سقف كنيسة السيستين الذي يبرز عبقرية مايكل أنجلو، كما جالت في أرجاء الطرقات المشجرة المظللة لحدائق بورغيز، فراحت تراقب الأطفال وهم يلعبون ويتجنبون المشاة بعرباتهم. ذهلت لرؤية السياح يرمون النقود الحجرية إلى الوراء من فوق أكتافهم، التزاماً بطقس تقليدي يقضي بأن يقذفوها إلى داخل نافورة تريفي المهيبة. بعد أن استدارت رايتشل، التفت ذراع فيتو حول كتفها. أخذ يقودها بين السياح المستعجلين المصطدمين بهما، الذين تجمعوا حول حافة البركة.

كادت رايتشل تصاب بالاغماء من فرط غبطتها لدى شعورها بذراعه حول كتفيها. توقف فيتو أمام محل قريب يبيع البوظة، فشعرت بالحيرة والتردد عندما وجدت نفسها غير قادرة أن تقرر ما تختاره من العشرة آلاف نكهة المتوفرة أمامها. تمشيا على الدرب وهما يحملان البوظة بأيديهما عائدين نحو الفيا كورسو.

خلال هذين الأسبوعين عرفها فيتو على مختلف أرجاء روما، بينما راح يبتسم لها ويتبادل النكات معها. أما رايتشل فبدت مسحورة مفتونة. عمياء... عمياء تماماً وغير قادرة على رؤية ما كان يفعله.

هنالك دليل واضح كان يجدر بها أن تراه. إنه دليل هائل، واضح تماماً بعد النظر إلى الوراء. لكنه لم يكن واضحاً حينها... ليس بالنسبة إليها. ليس بالنسبة إلى الفتاة المسكينة الغبية الصغيرة العديمة

الخبرة التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها.

طيلة فترة وجودهما سوياً بالكاد لمسها فيتو. باستثناء تلك الذراع التي لفها حول كتفيها عند نافورة تريفي لم يحصل سوى ذلك التلامس العرضي لأناملهما عندما ناولها البوظة الخاصة بها لكن لا شيء أكثر، لا شيء أكثر على الإطلاق. إلى أن حانت تلك الليلة الأخيرة المميتة.

مزقها ذاك العذاب الأليم، فجذبت بخشونة الستارة الرثة لتغطي الملابس المعلقة، ثم دخلت إلى المطبخ الصغير الضيق الذي يحتوي على أكثر من خزانة واحدة، ثم فتحت صنبور المياه لتملأ الإبريق. لم ترغب رايتشل بأن تتذكر. هي لا تريد أن تتذكر. تلك الليلة... تلك الليلة التي كان يفترض أن تكون الليلة الأخيرة التي تمضيها في روما لم يُعدها فيتو إلى الشقة الخاصة بوالد جيني كما كان يفعل دوماً كل ليلة. بعد أن شربا القهوة في أحد المطاعم القديمة، أخذها فيتو إلى بناء فخم، حيث تقع الشقة الرائعة التي يملكها آل فارنيستي.

عانقها فيتو فارنيستي بكل المهارة والخبرة اللتين يتمتع بهما الفتى الإيطالي اللعوب العاشق...

استطاعت رايتشل أن تشعر بعينيها تخزانها، وبالألم يطبق عليها.

عناقها لم يتطلب منه الكثير، فرايتشل ذهبت إلى ما بين ذراعيه منقطعة الأنفاس، متيمة. ذابت أوصالها تحت تأثير عناقه، فيما حاول سحق مقاومتها الركيكة تجاهه.

خلال هذين الأسبوعين الشبيهين بالحلم وقعت رايتشل بشكل لا رجاء منه في حب فيتو، فكانت مبادلته العناق بمثابة عمل ولاء وافتتان مطلق. تعلقت به رايتشل وأطبقت أناملها على كتفيه.

لكن بعد ذلك دفع بها فيتو إلى الجحيم. إنه جحيم شديد العذاب، إلى درجة أنها لم تدرك أن بمقدورها أن تشعر بألم مماثل.

أدخلها فيتو إلى غرفة جلوس أنيقة تتوسطها أريكة كبيرة. جلسا معاً على الأريكة متعانقين. شعرت رايتشل أنها تطير من فرط النعيم

والسعادة اللذين أحست بهما...

في اللحظة التالية صعقها الرعب، إذ سمعت صوت الباب الأمامي يفتح، ثم سمعت صوتي القادمين. أحست بفيتو يتوتر فجأة وقد تصلبت عضلاته. تلا ذلك انفتاح باب غرفة النوم ودخول والدتها كالإعصار.

استطاعت رايتشل أن ترى عبوس وجه والدتها لدى رؤيتها للستائر المغلقة. أدارت المرأة رأسها لترى الشابين المتعانقين اللذين يجلسان على حافة الأريكة، وما لبث أن أشرق الإدراك على وجهها المرتعب.

حتى الآن، وبعد مرور سبع سنوات، ما زالت رايتشل قادرة على الشعور بالرعب نفسه الذي سببه لها الأمر بأسره. ما زالت قادرة على الشعور بالعرق البارد ينساب نزولاً على عمودها الفقري.

أخذت والدتها تصرخ باهتياج، ثم تدخل إنريكو مهاجماً مطالباً بمعرفة ما الذي يجري بحق الجحيم. أثناء ذلك ربضت رايتشل في مكانها خائفة مرتعبة وهي ترغب لو أن الأرض تنشق وتبتلعها. أما فيتو فبدا متحجر القلب لا مبالٍ. ما زال بمقدروها أن تسمعه الآن... وسوف تسمعه على الدوام. أخذت والدتها تصرخ في وجهه بالإيطالية، بدا وجهها مشوهاً غاضباً، بينما بدا إنريكو ساخطاً وهو يلوح بيده في الهواء.

ما كان من فيتو إلا أن قام عن الأريكة ببرودة متناهية، ثم استدار نحو آرلين، وقال: «أغويتها؟ بالكاد... هي التي ارتمت بين ذراعي».

تشدق فيتو بذلك بصوت مشدود قاس، بينما حرص على أن يتكلم بالإنكليزية حتى تفهم رايتشل ما يقوله.

نزل الماء على يديها، فهزّها وأعادها إلى الحاضر. أغمضت عينيها في محاولة لصدّ تلك الذكرى، لكنها لم تقدر. أخذت تلك الكلمات البشعة تجول في ذهنها مجدداً، تماماً كما فعلت في تلك الليلة المشؤومة منذ ثماني سنوات عندما أدركت بمرارة ما كان فيتو يفعله منذ البداية. تعمّد ببرودة أعصاب أن يجعلها تتعلق به مستغلاً سذاجتها،

كي يصطحبها إلى منزله لأجل هدف واحد فقط، متجاهلاً أنها في الثامنة عشرة من عمرها فقط. لكن وصول والده برفقة آرلين أفشل مخططه. لو أنه تمكن من إتمام ما خطط له، لوجّه ضربة قاسية للمرأة التي يمقتها بكل ذرة في كيانه.

بعد رحيل فيتو وإنريكو، صبت آرلين جام غضبها على رايتشل. راحت تهز كتفي ابنتها قائلة: «يا إلهي! يا لك من غبية رايتشل! ألم تدركي ما الذي يفعله؟ ألم تجدي الأمر مثيراً للريبة؟ هل ظننتِ أن رجلاً كفيتو فارنيستي قد يبدي أقل اهتمام بفتاة في الثامنة عشرة من عمرها؟ فيتو لا يهدر وقته الثمين على امرأة إن لم تكن عارضة أزياء خارقة أو نجمة سينمائية لامعة. لديه جيش من النساء الخاضعات لأمره. إنهنّ يقفن بالصف من أجل الحصول على ذاك الامتياز. ألم تستطيعي أن تري أنه من ذلك النوع من الرجال؟ ألم تدركي أنه ليس مهتماً بك؟ جاء بك إلى هنا حتى ينتقم مني. هو يعلم أنني أحاول حمايتك دوماً، لذا أراد أن يغويك. إنه يكرهني كما يكره مرض الطاعون، وهو قد يفعل أي شيء لكي ينال مني».

صدّت رايتشل أفكارها تلك، وأشعلت النار تحت الإبريق. يجب عليها ألا تفكربالأمر. لن تفكر بالسنوات السبع الماضية ولا بالساعتين الماضيتين.

كيف تُراني استطعت أن أقصده وأطلب منه أن يتزوجني؟ كيف استطعت أن أفعل ذلك؟ لا بد أنها فاقدة العقل حتى تظن أن باستطاعتها أن تجبره على فعل ما تريده بهذا الشكل.

لكنني أجبرت على المحاولة... كان علي أن أفعل...

القوة التي دفعتها إلى مواجهة فيتو بعد ظهر هذا اليوم كانت مُلزمة. إنها قوة عظيمة جداً، فهي ليست قادرة على التهرب من الواجب الذي يفرض عليها على الأقل أن تقوم بالمحاولة.

أخذت يدها ترتعش، فيما غمرتها موجة من الحزن والألم وهي

تسكب الماء المغلي فوق كيس الشاي الموضوع في الكوب. إن والدتها تحتضر، وهي مستلقية هناك في سريرها في المستشفى، انتشر السرطان في جسدها بسرعة كبيرة، أما العلاج الكيميائي والعلاج الاشعاعي فكانا قاسيين جداً على آرلين. لم تكن رايتشل بحاجة لأن ترى وجوه الأطباء حتى تعلم أن أمها تخسر تدريجياً معركتها مع الموت.

قفزت أمام رايتشل بكل وضوح صورة وجه والدتها الذي أصبح مشوهاً بشكل مريع. في ما مضى كانت آرلين جميلة جداً، جذابة جداً، والآن صارت هزيلة بفعل الألم والمرض.

إلى جانب حزنها المرير جاءت مرارة الذنب. في السنوات التي تلت تلك الكارثة الشنيعة في روما انسحبت رايتشل تماماً من حياة والدتها. كانت في الثامنة عشرة من عمرهاعندما قام فيتو فارنيستي بيرود وقلب متحجر باستخدامها كسلاح ضد عدوة والدته اللدودة.

يومها أرادت آرلين أن يجبر إنريكو ابنه فيتو على الزواج من رايتشل. فكرت رايتشل الآن وقد أحست بالمرارة تسد حلقها أن هذا الطلب جعلها تبدو أشبه بالعذراء الفيكتورية التي تعرضت للخزي والعار، ودُمّرت سمعتها إلى الأبد.

بالطبع رفض إنريكو الاصغاء إلى توبيخات عشيقته، أما ضحكات فيتو المزدرية الساخرة فكانت أسوأ من ذلك. رايتشل علمت أن أياً منهما لم يأبه لأن ابنة آرلين تعرضت لهذا الموقف المخجل، أما بالنسبة إليها فتوبيخات والدتها بدت مريعة أكثر من خداع فيتو لها.

بدت آرلين مهووسة بفكرة تزويج فيتو من ابنتها، مهما كان ذلك الأمر بعيد المنال، وبغض النظر عن مدى غرابته بالنسبة إلى رايتشل. في النهاية انطلقت رايتشل هاربة نحو إنكلترا، لكن ليس إلى المدرسة. قصدت عمتها التي.قلما عادت والدتها تتصل بها، فوجدت نمط عيشها المتواضع أكثر ملاءمة لها. بعدئذٍ حصلت لنفسها على وظيفة نادلة في

مقهى بيرايتون، وأقسمت على أن تصبح مستقلة مادياً عن آرلين.

انحرف ذهن رايتشل بعيداً عن تلك الذكرى، فهي تزيد حزناً على حزنها. ألا يكفيها ما تشعر به الآن من حزن وألم بسبب حالة والدتها الصحية؟ مدت يدها داخل البراد الصغير ذي الإطار المفتت، فأخرجت علبة حليب سكبتها داخل الكوب وتابعت التحريك. إنها تقوم بذلك كله بصورة آلية، إذ إن ذهنها بدا كغمامة من الأفكار والمشاعر المهتاجة.

الذنب! يا له من خسيس قوي ناخر مزعج يتآكلها! فيبرز حزنها ويزيده حتى يصبحا معاً مزيجاً لا يحتمل، ما يجعلها تقوم بأكثر أفعالها جموحاً وجنوناً. كأن تحاول إجبار فيتو فارنيستي على الزواج منها. فقط لكي تسهّل موت والدتها.

احتضنت الكوب بيديها وتمشت عائدة إلى وسط الغرفة لتصل بالقرب من النافذة. حجبت الستائر المصنوعة من الشبك الزقاق في الأسفل بالإضافة إلى مستوعبات النفايات والملصقات الإعلانية التي يلوحها الهواء وكذلك المهملات المبعثرة.

لم تكن رايتشل تشعر بالذنب بسبب إقصائها آرلين خارج حياتها. فهذه الأخيرة لم تتوانَ عن تركها والابتعاد إلى روما لتعيش حياة مترفة مع إنريكو فارنيستي. حتى في ذلك الوقت ومع أن رايتشل كانت ما تزال مراهقة، علمت بأن ليس هنالك أي أعذار يمكنها أن تغير حقيقة أن آرلين وإنريكو شخصان أنانيان ولا يباليان بمشاعر الآخرين.

رفعت رايتشل الكوب إلى فمها فارتشفت الشاي الساخن من دون أن تشعر حتى بمذاقه. كم كانت مخطئة! كانت مخطئة كلياً وتماماً بخصوص آرلين، لكنها لم تعرف ذلك إلا بعد فوات الأوان. إلا بعد أن صارت والدتها مريضة جداً. حينها، حينها فقط تمكنت رايتشل من رؤية والدتها تحت ضوء مختلف تماماً.

- فعلت هذا كله لأجلك يا ابنتي العزيزة.

همست لها والدتها بذلك بينما كانت الأدوية ومسكّنات الألم تجعل ذهنها مشتتاً. تمكنت آرلين أخيراً من إطلاق مشاعرها الصادقة نحو ابنتها، وهي مشاعر كبتتها لسنوات طوال.

- أردتك أن تحصلي على شيء يفوق ما حصلت عليه يوماً. والدك تبرأ منك، واحتقرني. أرادني فقط لإرضاء شهواته لا أكثر. لطالما كرهته بسبب ذلك. كرهته... لذا أردتك أن تكبري لتصبحي من ذاك النوع من الأشخاص الذين لا يستطيع هو ولا عائلته الغالية أن يعاملوهم باحتقار. أردتك أن تحصلي على أفضل تعليم، أفضل تربية، وأن تخالطي أشخاصاً من المستوى الاجتماعي نفسه الذي ينتمي إليه والدك وعائلتك. لهذا السبب منحتك اسمه، بالرغم من أنني لم أتمكن من وضعه على شهادة ميلادك. علم والدك أنني لا أستطيع أن أطالبه بأي شيء ولا أن أطالب بملكيته الغالية. تخلى عنا نحن الاثنتين. عندما وقع له حادث اصطدام بسيارته تلك شعرت بالسرور، فقد نال عقابه بسبب ما فعله بك وبي، ورفضه الاعتراف بك. لم أنسَ يوماً سخريته وقوله إنني لست مناسبة كي أتزوج منه.

قبضت يد آرلين بإحكام على يد رايتشل، فيما لفح العذاب المرير عينيها.

- لِمَ لم أكن أبداً مناسبة للزواج؟ هل كنت فقط مناسبة لإقامة علاقة عابرة؟ إنريكو أرادني أن أبقى إلى جانبه دوماً لكنني لم أكن أستطيع الزواج به أبداً، فقد كان متزوجاً.

بدأ صدرها يرتفع ويهبط مهتاجاً. أما رايتشل فجلست هناك تتلوى من الألم فيما تابعت والدتها الإدلاء باعترافها الأخير الذي يمزق القلب.

- أحببت إنريكو بصدق، لكنه لم يبادلني الحب أبداً... ولو للحظة. أرادني بقربه لإرضائه فقط. هذا كل شيء. حاولت ألا أظهر له أبداً أنني أهتم لأمره. لو أظهرت له الاهتمام الزائد عن الحد لشعر

بالغضب والانزعاج. لو أنني فعلت لظن أنني أحاول الضغط عليه كي يطلق زوجته، لكنني علمت أنه لن يفعل ذلك أبداً. ليس لأنها كاثوليكية... بل لأن...

ظهرت المرارة في صوت آرلين مجدداً، ثم تابعت: «... حتى لو كان حراً، ما كان ليتزوجني، فأنا بالنسبة إليه مجرد امرأة يعبث معها».

أحست رايتشل بمشاعر الغضب لأجل والدتها تهزها بقوة. راح المزيد من الذكريات يندفع إلى رأسها... رأت والدتها مستلقية هناك بعينيها الغائرتين اللتين يكدرهما فرط هزالها وذبول وجهها، فيما يبدو جسدها كالخيال فوق الأغطية البيضاء. تذكرت رايتشل صوتها الخافت المعذب وهي تتحدث إلى ابنتها ويدها تطبق بإحكام على يدها.

- أردتك أن تصبحي امرأة محترمة بما يكفي كي تتزوجي. أردتك أن تصبحي من ذلك الصنف من النساء اللواتي يسعى الرجال إلى التقرب منهن، ويجعلون منهن زوجات لهم. عندما حاول فيتو إغواءك كدت أموت... خدعك واستخدمك ليحاربني، وحاول أن يحولك إلى امرأة فاسدة...

أغمضت آرلين عينيها فيما بدا الإرهاق والانهزام على وجهها.

- لطالما راودني حلم... حلم حقيقي جداً... حتى إنني ظننت أحياناً أنه حاصل فعلاً. حلمت بأن يتزوجك فيتو... بما أن والده لن يتزوجني أبداً. لطالما رأيتك في أحلامي عروساً لآل فارنيستي وأنت تضعين زمردات آل فارنيستي حول عنقك!

انفتحت عينا والدتها فجأة وأصبحتا متوهجتين جداً، ثم تابعت كلامها قائلة: «لهذا السبب أخذت الزمردات! كانت هناك في شقة روما... الشقة التي أخذك إليها فيتو لكي يحاول استغلالك وتحويلك إلى امرأة فاسدة. كنت هناك عندما انهار إنريكو جراء السكتة القلبية التي تعرض لها. أخذته سيارة الإسعاف من هناك، ولم أره أبداً منذ

ذلك الحين... أبداً! أصدر فيتو أوامره بألاّ يُسمح لي بدخول المستشفى حتى أودعه أو حتى لأقول له إنني أحببته... لكن فيتو لم يسمح لي برؤيته. كما أمر بأن يطرودني من شقة روما. عدت حينها إلى الفيلا، وبعد مرور ثلاثة أيام وبعد أن تآكلني الخوف على إنريكو وما يحصل معه اتصلت بالمستشفى، لكنهم رفضوا أن يطلعوني على أي أخبار، لأن فيتو أمرهم ألاّ يفعلوا. بعدئذٍ جاءت شاحنة صغيرة إلى الفيلا، نزل منها رجال أمن قاموا بإخراجي من هناك، ثم قرأت في الجريدة اليومية أن إنريكو فارنيستي صاحب شركة فارنيستي توفي في اليوم السابق في روما، حيث كان ابنه وزوجته المحبوبة إلى جانب فراشه! أما أنا فلم أعلم حتى أن إنريكو توفي إلى أن قام فيتو بطردي من الفيلا، وجردني من كل شيء حصلت عليه من إنريكو يوماً».

استنشقت آرلين أنفاسها مجدداً بألم، أما رايتشل فجلست ممسكة بيدها، فيما أحست كما لو أن قلبها ينسحق بملزمة وهي تصغي إلى اعترافات والدتها.

التمعت عينا آرلين المشرقتين، وتابعت: «لكن فيتو لم يعلم... لم يعرف أنني أخذت معي الزمردات من الفيلا. أخذتها عندما قام بطردي. إنها لك يا ابنتي العزيزة... لك، لتضعيها عندما تصبحين عروساً لآل فارنيستي».

حاولت رايتشل أن تعترض برفق وحذر. لكن ذهن آرلين المغشي بالأدوية المخدرة كان قد تبنى حقيقة جديدة، حقيقة مبنية بأكملها على أمل أخير يائس، بغض النظر عن كونه بعيد المنال.

همست آرلين وعيناها متسعتان، وهما تفيضان بمشاعر الأمومة التي أبقتها مكبوتة لفترة طويلة جداً:

- إنها أمنيتي الوحيدة لك. لو أن بمقدوري أن أراك عروساً لفيتو... آه يا ابنتي العزيزة... عندها سوف أموت سعيدة...

انهمرت الدموع من عيني رايتشل، لا بد أنها جنت حتى ظنت أن

بمقدورها أن تجبر فيتو فارنيستي على وضع خاتم في إصبعها ولو لفترة قصيرة جداً... حتى آخر ما تبقى من حياة آرلين. لكن فشلها المثير للشفقة بعد ظهر هذا اليوم جعلها تعلم أنها محقة في محاولتها تلك مع فيتو. لعل الأمر ميؤوس منه ومضحك، وربما هو أمر مجنون تماماً كما وصفه فيتو ساخراً، لكن رايتشل ما كانت لتهدأ إلا إذا حاولت أن تحقق أمنية والدتها وهي على فراش موتها.

فكرت رايتشل أن الموت يغير كل شيء... إنه يكوّن حقائق جديدة ويدمر الوقائع القديمة. جل ما هو مهم بالنسبة إليها الآن هو الفترة الوجيزة الباقية من حياة والدتها. لاشيء آخر... لا نفسها أو مشاعرها ولا رغباتها أو مخاوفها، ولا فيتو فارنيستي أيضاً.

* * *

بدت تلك الليلة من شهر تشرين الثاني باردة موحشة، وذلك عندما عادت رايتشل من زيارتها لوالدتها. كل زيارة كانت تقوم بها إلى والدتها مؤلمة، أما اليوم وبعد أن تحملت محنة محاولة تحقيق أمنية والدتها الميؤوس منها وهي على فراش الموت، بدت زيارتها أكثر إيلاماً. بدت آرلين أضعف، كما أفلتت أحدى الممرضات الجملة التي كانت رايتشل تخشى سماعها، ومفادها أن تضع والدتها في مركز متخصص يعتني بالمرضى أمثالها.

أحست رايتشل أن الألم يقبض عليها بقوة مجدداً.

ما زال أمامهما القليل جداً من الوقت المتبقي لهما سوياً، وقد أهدرتا الكثير منه. على الرغم من معرفتها أخيراً لماذا أرسلتها آرلين إلى مدرسة داخلية، ولم ترها إلا قليلاً عندما كانت صغيرة، فإن الأمر ما زال يؤلمها بشكل يائس.

- لم أرغب بأن تظلي مرتبطة بي!

كانت آرلين قد أخبرتها بذلك، فيما انسحق قلب رايتشل من شدة الأسى والحزن حين سمعت حقيقة مشاعر والدتها تجاهها. تابعت

آرلين: «لم أكن أريدك أن تعاني بأي شكل من الأشكال بسبب علاقتي مع إنريكو! و...».

ازداد صوتها كآبة حين تابعت: «... لم أشأ أن يدنو منك فيتو، ذاك الشاب الوسيم المغرور بوسامته».

قاطعت رايتشل الذكرى في ذهنها، فقد بدت مؤلمة جداً. والآن بعد نقص درايتها وجهلها اللذين دفعاها لرؤية فيتو مجدداً بعد كل هذه السنوات تضاعف الألم عشر مرات، فأخذ يخدش أعصابها. كانت والدتها محقة بإبقائها بعيدة عن فيتو فارنيستي. مع ذلك، وبالرغم من يقينها وتأكدها من ذلك فقد خانها قلبها. فيتو! رؤيته من جديد منذ بضع ساعات، هي بمثابة عذاب جديد وشوق جديد...

اندفع شعور آخر من خلال العذاب الأليم والحزن اللذين تشعر بهما بسبب مرض والدتها.

هذه المرة عرفت رايتشل ما هو هذا الشعور! عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها لم تعرف رايتشل حتى اسم هذا الشعور، حتى إنها لم تكن تعرف بوجوده. أما الآن وهي في الخامسة والعشرين من عمرها فصارت تعرف؛ إنه الانجذاب نحو فيتو!

كيف يمكنك أن تشعري بالانجذاب إلى رجل يمقتك؟ رجل لطالما مقتك... إنه أمر مخزٍ، مثير للشفقة، لا يمكن غفرانه. لكن معرفة ذلك والشعور به أمران مختلفان تماماً.

فقط لو أنني لم أذهب إليه اليوم! فقط لو أنني لم أره مجدداً!

أحست رايتشل بتوق مريض يتآكلها، ويجعلها تشعر بالخزي. صرفت هذا الشعور جانباً. لن تقع عيناها أبداً على فيتو فارنيستي من جديد. حاولت بعد ظهر اليوم أن تفعل ما أجبرها حبها لوالدتها على القيام به. لكنها كانت أكثر التجارب المريعة في حياتها. لكنها حاولت

على الأقل! على الأقل لن يؤنبها ضميرها لأنها لم تتحلى حتى بالشجاعة لكي تحاول تحقيق أمنية والدتها وهي على فراش الموت، على الرغم من أنها علمت أن تحقيقها أمر مستحيل.

حضرت رايتشل العشاء وهو عبارة عن الفاصوليا مع الخبز المحمص. إنها وجبة رخيصة وسريعة. أثناء تناولها عشاءها اضطرت إلى إجبار نفسها على ابتلاع كل لقمة منه. بعدئذٍ أحضرت الكمبيوتر النقال الخاص بها وهي تشعر بثقل وانسحاق في قلبها.

لم تذهب مطلقاً إلى الجامعة، كما أنها لم تكمل دراستها الثانوية. لو أنها فعلت لتمكنت بلا شك من الانتساب إلى إحدى الجامعات المرموقة، لكنها عوضاً عن ذلك تلقت دروساً مسائية في جامعة محلية دفعت تكاليفها من أجرها الخاص، وذلك إلى أن حصلت على مؤهلات كافية تسمح لها بالحصول على وظيفة في قسم التسويق لدى شركة عالمية. جنت رايتشل من وظيفتها تلك ما يكفي لتدفع أقساط شقة صغيرة مريحة في لندن. إنها الشقة نفسها التي باعتها لتساعد في دفع تكاليف علاج والدتها في مستشفى خاص.

أطلقت ضحكة مريرة. بعد الرفاهية التي أمنها إنريكو فارنيستي لوالدتها، فإن أمورها الحالية لا تسير بشكل جيد. لعل الحزن وانكسار القلب والمرارة التي استهلكت والدتها، كلها عوامل جعلت آرلين لا تهتم بالمال الذي وضعته جانباً. على أي حال نفد هذا المال بسرعة الآن، فمصاريف المستشفى الخاص تشكل عبئاً ثقيلاً، لكن رايتشل لا تأبه لذلك. جل ما تريده هو أن تعيش آرلين مرتاحة لبقية حياتها. فتحت كمبيوترها النقال، وهمّت بالعمل. إنها ممتنة جداً لأنها وجدت عملاً بدوام حر، فهي تترجم كتباً خاصة بالتسويق من اللغتين الإسبانية والفرنسية إلى اللغة الإنكليزية. صحيح أن مدخولها ليس كبيراً كما كان من قبل، لكن عملها هذا أكثر مرونة، ويسمح لها أن تمضي قدر ما

تستطيع من الوقت برفقة والدتها. أوقفها فجأة عن العمل صوت هاتف المدخل. من بحق السماء يريد مقابلتها في هذا الوقت؟ توجهت رايتشل نحو الباب فيما ساورها القلق. رفعت سماعة الهاتف بذهن مشوش.

أجابت بحذر: «نعم؟ من الطارق؟».

جاءها الرد المختصر: «فيتو فارنيستي».

www.elromancia.com

٤ ــ لا أريدك أنت

وقفت رايتشل في مكانها حوالى الخمس ثوان جامدة مذهولة، غير قادرة على تصديق ما سمعته للتو. مدت يدها لتضغط على الزرّ لتفتح الباب الأمامي للمنزل في الطابق السفلي، لكن حتى وهي تفعل ذلك، أحست بارتعادة من الخوف تجول عبر جسدها.

ما الذي يريده؟

ما إن فتحت مترددة باب شقتها التي تعلو طابقين عن المدخل، حتى سمعت وقع قدمي فيتو على الدرج. بعد لحظة ظهر فيتو عند زاوية الدرج، وتوجه مباشرة نحوها. بدا وجهه غامضاً وخالياً من أي تعابير، فأحست رايتشل بالتوتر يزداد في داخلها. هل يظن أنها تحتفظ بزمردات فارنيستي هنا في الشقة؟ هل يخطط لأن يأخذها بنفسه من هنا بالقوة؟

على أي حال، كيف تراه وجد مكان إقامتها؟

الاهتياج والاضطراب جعلاها تطرح السؤال من دون أن تفكر به بصوت مرتفع حتى قبل أن يصل فيتو إليها.

- كيف عرفت أين أقيم؟

زم فيتو فمه ما إن اقترب منها: «أرسلت أشخاصاً كي يلحقوا بك عندما غادرت مكتبي. هل إقامتك هنا هي مزحة ما لكي تخدعيني؟».

ما إن وصل فيتو إليها، حتى دفعها جانباً حتى يدخل إلى الشقة. ألقى نظرة متفحصة ساخرة على تلك الفسحة الضيقة الرثة، ما جعله يعقد حاجبيه

سوياً. بعدئذٍ أدار نظرته نحو رايتشل التي وقفت مصعوقة بالقرب من الباب. شعرت بالخوف، الصدمة، المقت، الدهشة... وشيء ما أكثر قوة من تلك الأحاسيس. أحست أن الدماء تغلي في داخلها فتطغى على أي شيء آخر.

ما زال فيتو يرتدي بذلة العمل الرسمية، لكنه تخلص من ربطة عنقه منذ أن رأته بعد الظهر، إلا أن ذلك لم يجعله يبدو أقل وسامة، مع أنه جعله يبدو أشعث المظهر قليلاً.

وقف فيتو في وسط الغرفة تماماً، نظراً إلى حدودها الضيقة.

- لماذا أنت في هذا المكان البالي؟ هل أنت فعلاً مفلسة إلى هذا الحد؟ لم تبدي كذلك عندما دخلتِ إلى مكتبي بعد ظهر اليوم، أم أنك كنت تحاولين التأثير عليّ؟

توتر وجه رايتشل التي راحت تقاوم بشدة للحفاظ على سيطرتها على نفسها، لكنها علمت أنها تخسر.

طالبها فيتو بينما عيناه تومضان فوق جسدها: «حسناً؟!».

هذه المرة حملت عيناه الازدراء التام، ولم تفاجأ رايتشل بذلك، فبعد ظهر هذا اليوم بدا مظهرها جيداً إلى أبعد الحدود، أما الآن فهي على العكس تماماً. إنها ترتدي بذلة رياضية، ووجهها خال من التبرج، فيما يبدو شعرها مشدوداً إلى الوراء ومربوطاً على شكل عقدة.

تمكنت رايتشل أن تتدبر الرد بكلمات لاذعة إذا قالت: «وما شأنك أنت بأموري المالية؟».

تصلبت نظراته، وبدا من الواضح أنه لم يعجب مطلقاً بنبرة صوتها.

- بما أنك رفضتِ للتو مبلغ المليون يورو الذي عرضته عليك، فهذا يجعل أمورك المالية من شأني بشكل ما. وبما أنك لن تحصلي حتى على عناق مني بشروطك المضحكة تلك، فالأحرى بك أن تأخذي المال. أليس كذلك؟ أين هي الزمردات؟

نظر فيتو حوله بينما ازدادت تعابير الازدراء في وجهه عمقاً.

أجابته رايتشل بحدة: «إنها في المصرف. هل ظننت أنني سأضعها في مكان آخر؟ إن كنت قد جئت إلى هنا كي تحاول إقناعي بأن أبيعك إياها، فيمكنك أن تخرج. والدتي لن تبيع أبداً!».

- أحقاً؟ أعلى الرغم من أنك مفلسة إلى درجة تجعلك تعيشين في هذا المكان البالي القذر؟ أين هي آرلين على أي حال؟ أهي مفلسة أيضاً؟ لا يمكنني أن أتصور أنها تسمح لابنتها الغالية بأن تقيم في هذا المكان بينما تتنعم هي بإنفاق ما تبقى لديها من أموال والدي.

انغلق وجه رايتشل وتجمدت أوصالها. لن تدعه يكتشف شيئاً بخصوص والدتها. إن حصل ذلك وأظهر فيتو إشارة واحدة تنم عن رضاه وامتنانه لأن عشيقة والده التي يمقتها تنال عقابها، فرايتشل سوف تقتله بيديها المجردتين. أحست رايتشل بحاجة ملحة غامرة لأن تحمي والدتها من هذا الرجل الذي يكرهها كثيراً.

كذبت رايتشل قائلة بسرعة: «إنها مسافرة خارج البلاد! إنها في إسبانيا، فهي تحب الطقس الدافئ».

استطاعت أن تشعر بنظرات فيتو تضغط عليها: «كيف يصادف إذاً أنك تشعرين بالحرية لتتصرفي بالزمردات؟ هل أصبحت ملكك أنت؟».

أجابت رايتشل بدهاء: «نعم».

في الواقع هي تمتلكها، فقد منحتها آرلين حرية التصرف بشؤونها منذ شهرين، وذلك قبل أن تصبح مريضة جداً إلى حد لا يسمح لها أن تعتني بالزمردات أكثر.

نعم. هي تمتلك زمردات فارنيستي! لكنها تعلم أنها لا تستطيع أن تبيعها أبداً. تعلم رايتشل أنها، عندما تموت والدتها، سوف تعيد الزمردات من دون أي مقابل إلى الشخص الوحيد الذي يحق له الاحتفاظ بها فعلاً: أرملة إنريكو. فهمت رايتشل السبب الذي دفع والدتها إلى أخذ الزمردات، لكنها تعلم أنه لم يكن لآرلين أي حق بها،

كما أنها ليست من حقها هي أيضاً. لو أن فيتو وافق على شروطها بعد ظهر هذا اليوم، لأعادت إليه الزمردات من دون أي مقابل. إنها لا تريد من فيتو أي شيء سوى اسمه على وثيقة زواجهما، بالإضافة إلى صور للزفاف كي تريها لوالدتها، وتقنعها أنها تزوجت فعلاً من ابن إنريكو. لكن فيتو رفض تماماً محاولتها المضحكة بأن تحقق أمنية والدتها قبل موتها، وبالتالي عليها أن تحتفظ بالزمردات إلى أن تموت آرلين، فتصبح قادرة على إعادتها إلى السينيورا فارنيستي.

تغير شيء ما في وجه فيتو فيما أجابته رايتشل. شيء ما جعل الدماء تبرد في عروقها أكثر.

- لقد اعترفت للتو بأنك تحتفظين بزمردات فارنيستي، أخبريني إذاً يا عزيزتي، ما الذي يمنعني من إقناعك بأن تعيديها لي؟

التمعت عينا فيتو، فأحست رايتشل بالخوف يطعنها مجدداً. لكن لا يمكنها... لا يجدر بها أن تشعر بالخوف أمامه. ردت عليه بنبرة دفاعية: «لا آبه البتة بما تظنه في ما يتعلق بالزمردات. لو كان بمقدورك أن تستعيدها بشكل قانوني حتى الآن لفعلت ذلك. وإن تجرأت على وضع إصبعك علي، سوف أتهمك بالتعرض لي، ولن تلبث الصحافة الصفراء وصحف الإشاعات أن تنشر خبر الفضيحة».

استنشقت رايتشل نفساً عميقاً مرتعداً، وتابعت: «حسناً! إن كان هذا كل ما جئت إلى هنا من أجله... حتى تقوم بمحاولات الصبي المستأسد فيمكنك أن ترحل بسرعة».

ازداد الالتماع في عيني فيتو، وفجأة بدت شقتها الصغيرة الضيقة أصغر مما هي عليه فعلاً. تسارعت أنفاس رايتشل، وأمكنها أن تلاحظ ذلك، كما بدأ الأدرينالين يندفع بسرعة في مجاري دمها. لا بد أن سبب ذلك هو الخوف الذي تنكره والتوتر... هذا كل شيء.

لكنها علمت أنها تخدع نفسها. استطاعت أن تشعر بجسدها يتجاوب مع وجود فيتو، إذ أحست بكل عصب من أعصابها يقفز

منتفضاً. أرعبها ذلك الشعور. إن لاحظ فيتو ذلك... إن أدرك أنها متأثرة به، فهي سوف تموت، ستموت بكل بساطة! ذلك سوف يعطيه سلاحاً آخر يستخدمه ضدها، ولا يمكنها أن تأمل أبداً بهزم ذاك السلاح.

أدركت رايتشل أنها سوف تشعر بهذا الشعور تجاه فيتو حتى آخر يوم من عمرها. اللمعان الغامض في عينيه يجذبها كالمغنطيس، وهذا الأمر أخافها حتى العظام. لكن كلماته التالية أخافتها أكثر.

- كنت أفكر بطريقة مختلفة تماماً في الاقناع يا عزيزتي.

استقرت عيناه السوداوين عليها، ورأت فيهما رايتشل تعبيراً مزق السنوات التي عاشتها بعيدة عنه. أحست كما لو أن هنالك ثقباً ما في معدتها، وبأن رجليها صارتا ترتعشان فجأة. فكرت، كان الأمر مزيفاً حينها، وهو مزيف الآن! خدعك فيتو عندما كنت في الثامنة عشرة من عمرك، خدعك حين أقنعك أنه وجد تلك التلميذة الإنكليزية البريئة ذات الثمانية عشر ربيعاً جذابة بالنسبة إليه، وهو يخدعك الآن أيضاً!

فضلاً عن ذلك، هي تعلم كيف يبدو مظهرها الآن. لقد خلعت الملابس الأنيقة المتألقة التي كانت ترتديها بعد ظهر هذا اليوم، وعادت الآن إلى ارتداء ثيابها العادية المتواضعة. إنها ترتدي بذلة رياضية تقتل الشغف، فيما ربطت شعرها إلى الوراء على شكل عقدة صارمة، كما أنها لا تضع أي نوع من التبرج على وجهها.

لاحظ فيتو ردة فعل رايتشل، وأمتعه ذلك. لكنها استطاعت أن ترى الغضب مشتعلاً فيه تحت تلك القشرة من التسلية والاستمتاع. رأته يسير نحوها، وبدا من الواضح أن هنالك هدفاً من خطواته. أحست مجدداً بتسارع الأدرينالين في جسدها. أرادت أن تتحرك مبتعدة عنه. أرادت أن تصرخ، أن تزعق، أن تهرب خارج الباب، أن تتراجع حتى نهاية الغرفة، فتقفل الباب على نفسها في الحمام الصغير حتى تهرب منه. لكنها تجذرت في مكانها، وما إن تجمدت هناك حتى وقف فيتو

أمامها، أما اللمعان في عينيه فسرّع وتيرة أنفاسها.

مدّ فيتو يده فلفها حول عنقها. أحست رايتشل برأسها ينحني بخفة، وفي الوقت نفسه وكزها شعور بالذنب اقشعر له بدنها. عبرت الأحاسيس جسدها كالمطر الغزير الغامر، فمحت تلك السنوات السبع الطوال التي مرّت منذ أن لامسها فيتو فارنيستي لآخر مرة.

سمعته وهو يغمغم شيئاً ما بالإيطالية، لكنها لم تفهم ما قاله. إذ إن كل قدراتها على الاحساس كانت مندمجة في إحساس واحد هو ملامسة أصابعه لبشرتها. عانقها فيتو برقة، فسرى عبر جسدها ذاك المطر الغامر، وأخذها إلى عالم لم تحلم أبداً بأن تخطو إليه مجدداً.

بدا عناقه بالنسبة إليها نعيماً. إنه جنة متميزة جداً إلى درجة أنها ما عادت قادرة على التفكير، كما لم تعد قادرة على الحراك، بل بمقدورها فقط أن تغوص إلى أعماق تلك النعمة الصامتة الأبدية بأن يعانقها فيتو فارنيستي. أحست رايتشل أن جسدها يفقد قوته، ويستلقي إلى الأمام مستنداً على جسده. فاستسلمت إلى مشاعرها تلك.

ازداد عناقه عمقاً، فأخذ يرسل داخلها أحاسيس قوية إلى درجة جعلتها تحس كما لو أنها عذراء من العصر الفكتوري سوف يغمى عليها.

لكنها ليست عذراء من العصر الفيكتوري. وهي لن تسمح لفيتو فارنيستي بإغوائها.

تنبهت فجأة أن الأمر بالنسبة إليه ليس ممتعاً على الإطلاق. إنه لا يعني شيئاً بالنسبة إليه... لا شيء على الإطلاق! إنه فقط يفعل هذا للسبب نفسه الذي دفعه إلى إغوائها في المرة الماضية... لكي يستغلها. في المرة الماضية أراد أن يستخدمني حتى يجرح والدتي. وهذه المرة هو يريد زمردات فارنيستي...

جذبت نفسها مبتعدة عنه بحدة، وبقوة لم تدرِ كيف وجدتها: «لا!».

دفعت رايتشل يديه بعيداً عنها، وتراجعت إلى الوراء. كانت دقات قلبها تتسارع وأطرافها ترتعد إلى درجة أنها اضطرت أن تقاوم حتى

تتمالك نفسها.

للحظة تحرك شيء ما في عيني فيتو، ثم اختفى ذلك الشيء وحلت مكانه نظرة مألوفة... نظرة استهزاء وسخرية: «لا؟ حسناً! هذه كلمة جديدة في قاموسك عزيزتي. فلطالما كنت تقولين «أرجوك فيتو. أرجوك!».

تذكرت رايتشل بوضوح كريه تام اندفاعها وتوقها إلى عناقه آخر مرة كانا فيها معاً. لكن ليس هذا ما قصده فيتو بالتحديد بل قصد مناسبة مختلفة تماماً. قالت رايتشل هذه الكلمات عبر الهاتف، بعد أن توسلت سكرتيرته كي تصلها به. يومها أدركت رايتشل أن السكرتيرة لم تخبر فيتو أنها هي المتكلمة، لأنه ما كان سيتلقى المكالمة لو أنها أخبرته. رفع السماعة من دون أن يعرف أنها هي على الطرف الآخر، وسمعت رايتشل مجدداً صوته ذا النبرة القاسية يقول: «من المتكلم؟».

قالت بصوتها المرتعش: «أنا رايتشل... أرجوك، فيتو! أرجوك...».

إلاّ أن فيتو أقفل الخط من دون أن يسمح لها بقول أي كلمة أخرى.

بعد ذلك لم يسمح لها أبداً بالوصول إليه مجدداً. ومنذ ذلك الحين وصاعداً التزمت سكرتيرته بأوامره، ولم تعد تتجاوب معها، فالسينيور فارنيستي لن يتلقى أي مكالمات من قبلها.

انغلق وجه رايتشل، فيما صدّت كل إحساس تشعر به تجاهه محتجزة مشاعرها في داخلها. إنها ليست بحاجة إلى مشاعرها عندما يتعلق الأمر بفيتو فارنيستي.

أجابت وحلقها مشدود: «حسناً! أنا أقول لا الآن، فيتو. وأخشى أن زمردات فارنيستي تساوي أكثر من مجرد عناق بسيط من فيتو فارنيستي الرائع. لن تستعيدها بسعر زهيد!».

تصلّب وجه فيتو فازداد قساوة، كما ازدادت نظراته استهزاءً.

- لعل الزمردات تساوي أكثر من هذا، لكنك لا تساوين أكثر.

كانت تلك صفعة كبرى تتلقاها من بين العديد من الضربات الأخرى. إلاّ أن رايتشل لم تجفل هذه المرة. استنشقت نفساً عميقاً، حاداً وقالت: «بالرغم من ذلك إذا كان هذا أفضل عرض لديك، فالزمردات ليست للبيع. لن تغريني بالمليون يورو».

رمى فيتو سؤاله على رايتشل قائلاً: «لماذا؟ أنت تعيشين في مكان وضيع قذر. مبلغ مليون يورو سوف يخرجك من هنا، ويجعلك تعيشين بترف!».

راح ينظر إليها بتركيز بعينين ضيقتين، كأنه يحاول قراءة ما يدور في داخلها. أحست رايتشل أن الخطر يحوم حولها، لكنه مختلف عن الخطر الذي واجهته صدّته منذ لحظة. أحست بموجة غامرة من الرغبة بالدفاع عن والدتها المحتضرة أخذت تجيش في داخلها.

أراد فيتو أن يفهم لماذا تطالب رايتشل بهذا الثمن المضحك مقابل إعادة الزمردات. لكن... يجب ألاّ يعرف أبداً.

- كذلك الزواج بك سيفعل هذا. سيخرجني من هنا.

بدا صوت رايتشل سطحياً، فيما تركزت نظرات عينيها على عينيه كأنها تحاول إجباره على تقبل هذا السبب كدافع لها. راقبت ملامح فيتو تتغير، متخذة تلك النظرة الساخرة المستهزئة من جديد.

تشدق فيتو قائلاً: «إذاً هذا هو طموحك. أليس كذلك؟ أنت لا تريدين أن تكوني كوالدتك، فهذا ليس كافياً بالنسبة إليك. أنت تريدين الاحترام».

علمت رايتشل أن هذا قريب جداً من الحقيقة إلى درجة أنها استطاعت أن ترى ذلك في عينيه. رفعت ذقنها وقالت: «لِمَ لا؟ لو صرت السينيورا فارنيستي، سوف يرحب بي الناس في أي مكان».

لم تعرف رايتشل لِما قالت له ذلك، أو لِما تتابع السير بهذه المهزلة، ففيتو لن يتزوجها.

ابتسم ابتسامة ساخرة: «آه... تفكير طموح بالفعل! أخبريني أيتها الآنسة الساعية خلف الثروة، هل يمتد طموحك نحو الحصول على حصتك من أموال فارنيستي لكي تقبلي بتسوية طلاق مسرفة؟».

لم تسمح رايتشل لذلك القول أن يؤثر بها أيضاً. فقالت بنبرة الصوت السطحية نفسها: «لا».

- لا؟ إذاً هل أنت مستعدة للزواج بي حتى لو طردتك بعد ستة أشهر من دون أي قرش كنفقة؟

بدا عدم التصديق واضحاً جداً على وجه فيتو.

أجابته رايتشل بفظاظة وتصميم: «نعم».

- لماذا يا عزيزتي؟ يجدر بي أن أشعر بالإطراء، فأنت مستعدة للزواج بي على الرغم من أنك ستتنازلين عن نفقة الطلاق!

سخريته مست شيئاً ما في داخلها... لن تسمح له مجدداً أن يهزأ برغبتها الغبية البائسة في الزواج منه.

- الأمر لا يتعلق بك فيتو. أنا لا آبه بك البتة!

زاد الغموض والاسوداد في عينيه.

لم تعد قادرة على منع نفسها، ولم تستطع أن تتحمل فكرة أن يظن أنها واقعة في حبه إلى درجة تجعلها يائسة جداً للتقرب منه.

- هنالك شخص أكثر أهمية بالنسبة لي منك أنت! شخص...

توقفت تماماً عن الكلام، وقد أجفلها ما أوشكت على الاعتراف به.

للحظة ساد الصمت، ثم تكلم فيتو بصوت جعل لحمها يذبل.

- أخيراً فهمت اللعبة التي تحاولين لعبها.

حاولت رايتشل بسرعة أن تتدارك ما تفوهت به من دون تفكير.

- لا... أنا...

لوح فيتو بيده في الهواء: «تأخرت كثيراً يا عزيزتي. يمكنني أن أفهم الآن ما تنوين عليه. الأمر لا يتعلق بالزواج مني، بل يتعلق بالزواج من رجل آخر. رجل يرفض الزواج بك. أنت تظنين أن

بمقدورك أن تنتقمي منه بأن تصبحي فجأة السينيورا فارنيستي! أنت تريدين الانتقام. هذا كل ما في الأمر. أنت تنتقمين من الرجل الذي ازدراك واحتقرك، لأنه يريدك عشيقة له لا زوجة».

حدقت رايتشل به محاولة أن تستوعب ما يقوله.

كان فيتو ما يزال يتكلم: «أخيراً فهمت الصورة. الآن تبدو لي منطقية أكثر. الانتقام هو ألذ شعور على الإطلاق! لقاء هذا الثمن، يبدو مستعدة لاقتحام مكتبي اليوم معتقدة أنك إن أغويتني بالزمردات فسوف تقنعيني أن أسير معك في خطتك تلك».

التمعت عيناه بمقت كريه: «أردت أن تخدعيه. أردت أن يظن أنك وجدتِ رجلاً ثرياً ينوي الزواج بك، ولكي تجعليني أسير معك في هذا المخطط المبهج عرضتِ علي أن تعيدي لي زمرداتي الخاصة بالإضافة إلى التمتع بإقامة علاقة حميمة معك».

وخزها مقته هذا ما دفعها إلى الرد، إذ وجدت في مكان ما - لم تدرِ أين - مقتاً مماثلاً لمقته لها. أمالت رأسها قليلاً، فنظرت إليه ساخرة، ثم قالت: «في الواقع، لا. أنت لن تحصل سوى على الزمردات فيتو».

نضح صوتها باللامبالاة القارسة، فتابعت: «إن إقامة علاقة حميمة معك ما كانت لتصبح جزءاً من الاتفاق. مواهبك الخارقة في السرير ليست مطلوبة. حاولت ذلك ذات مرة، أتذكر؟ لكن لا! لن تحصل في المقابل سوى على زمرداتك تلك فقط».

علمت رايتشل أنها تفتقر إلى الأسلحة المناسبة حتى تحاربه بها، وأن هذا هو السلاح الوحيد الذي تملكه. إنه ضعيف ومثير للشفقة، لكن هذا كل ما تستطيع فعله، أن تدّعي اللامبالاة تجاهه.

الله وحده يعلم من أين جاء بفكرة أنها تريد الزواج منه حتى تعاقب عشيقاً خيالياً ما لأنه رفض الزواج بها، لكنها لن تنفي هذا الاعتقاد فهو سيساعدها على إخفاء حقيقة دافعها الفعلي. كما أن تظاهرها

باللامبالاة تجاهه سيحميها أكثر. لجأت رايتشل إلى إهانة أخرى، كما لو أنها متسولة تبحث في المهملات.

- لاشك أنك تظن نفسك هبة من الله للنساء فيتو، لكنني أخشى أنه في ما يتعلق بي أنا، أنت ممل قليلاً. أنا فقط أردت الحصول على خاتم زواجك في إصبعي، هذا كل شيء. أنا لا أتحرق لإقامة علاقة حميمة معك، بل إنني أرفضها بغض النظر عن مدى براعتك.

ظل فيتو يرمقها بنظراته، التي استقرت عليها من دون أن تظهر عيناه أي تعابير، كما خلا وجهه من التعابير أيضاً. أجبرت رايتشل نفسها على التحرك. ما الذي يحصل؟ لماذا ينظر إليها بهذا الشكل من دون أن تظهر على وجهه أي تعابير على الإطلاق؟ توقعت أن ترى وميضاً من الغضب يدل على أنه يعترض على إهانتها لجاذبيته التي لا تقاوم، إلاّ أنه راح ينظر إليها فقط، فيما بدا وجهه مغلقاً تماماً. تسلل عدم الارتياح إلى داخلها مجدداً، ثم أدركت ما يفعله فيتو، إنه يتعمد عدم الإجابة على إهانتها الصغيرة الواهنة فقط لكي يظهر لها كم هي سخيفة، رأيها ليس له أي قيمة على الإطلاق.

أحست رايتشل أن سهماً من الغضب يخترقها، فهي ليست ذات قيمة بالنسبة لفيتو. لطالما كانت كذلك. استفزته مجدداً، كأن هناك ما يجبرها على الحصول على ردة فعل منه... أي ردة فعل، لكي تظهر أن بمقدورها أن تؤثر عليه ولو قليلاً.

- أفترض أنك ظننتني مفتونة بك عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري. أليس كذلك؟

أطلقت رايتشل ضحكة قصيرة. هزت كتفيها قليلاً، وتابعت: «حسناً! هذه المرة يمكنك أن تلاحظ أنني لست مفتونة».

علمت أنه يفترض بها أن تسير في المواجهة إلى الحد النهائي، وإلا فإنها ستذبل وتعود إلى الرماد، فتابعت كلامها: «آه! أما الآن بالذات فإنني شعرت بالفضول، لذا سمحت لك أن تعانقني، لكن في ما

يتخطى ذلك... لا أظن أن شيئاً سوف يحدث بيننا. والآن، إذا كنت لا تمانع، لدي أمور عليّ متابعتها».

مشت نحو الباب وهي تشعر بالذهول والدهشة، غير مصدقة أن رجليها ما تزالان قادرتين على التحرك. هي بكل بساطة تريده أن يرحل لكي تستطيع أن تنهار بمفردها...

سحبت رايتشل القفل الآلي للباب إلى الخلف، ففتحته بضربة واحدة، ووقفت جانباً، ثم عادت ونظرت نحو فيتو.

لم يكن فيتو قد تحرك من مكانه. استمر واقفاً مكانه فيما وجهه ما زال خالياً من التعابير. عبرت جسد رايتشل ارتعادة صامتة. كيف تجرأت على أن تقول له أموراً مماثلة كما فعلت للتو؟ من أين جاءت هذه الأكاذيب، وأي فائدة ترتجي منها على أي حال؟

حثته قائلة: «أتظن أنك قادر على تحريك ساقيك؟».

بدا وجه فيتو مغلقاً، خاوياً تماماً. أما جسده فبدا جامداً متصلباً. ثم... فجأة، بدأ يتمشى نحو الباب. بدأ التوتر يزحف نحو رايتشل، فيما هيأت نفسها لمرور فيتو بالقرب منها، لكنه توقف عندما صار على بعد متر منها تقريباً.

- ماذا...؟

قاطع فيتو سؤالها الذي يحمل خوفاً ورعباً. اتجه نحوها مباشرة، أما عيناه غير المقرؤتان فاستقرتا على وجهها تماماً. وما لبث أن قال: «يجدر بك أن تتصلي بمصرفك يوم غد لتعلميهم بإنك سوف تستعيدين الزمردات. اتصلي بمساعدتي الشخصية أيضاً، واعلميها بموقع المصرف، لكي تعرف إلى أين يجدر بها أن ترسل الساعي».

حدقت رايتشل به غير مصدقة، وقالت وهي تعض على شفتها: «ليست لدي نية في السماح لك بالحصول على الزمردات».

رفع أحد حاجبيه، وقال: «كل عروس لآل فارنيستي تضع تلك الزمردات يوم عرسها. هل تتخيلين أنني سأسمح لك بأن تكوني حالة

استثنائية؟».

حملت عيناه السخرية، البرودة، فيما استقرت نظراته عليها بقوة.

- سوف يكون زواجاً مدنياً حالما يسمح لنا القانون بذلك، وسوف ينحل مجدداً بأسرع ما هو ممكن قانونياً. آه! سوف تكون هناك اتفاقية بيننا عليك أن توقعي عليها قبل الزواج، ويجب أن تكون الزمردات حول عنقك عندما أتزوجك حتى تتمكني من إعادتها لي بعد ذلك.

مد فيتو يده نحو مقبض الباب فجذبه وفتحه مجدداً. وجه ابتسامته نحو وجهها المتجمد من جراء الصدمة.

- يجدر بك أن تبدي سعيدة يا عزيزتي، فأحلامك الطفولية تحققت للتو... سوف أتزوج بك.

تمشى فيتو ماراً بالقرب منها إلى خارج الشقة. بدا مسترخياً وهو يخطو برشاقة وأناقة نزولاً على الدرج ذي السجادة الرثة البالية.

راقبته رايتشل بحذر وهو يخرج من الباب الأمامي، ثم سمعت الباب يخبط وينغلق خلفه. بعد فترة طويلة... طويلة، أحست أن قلبها عاد لينبض مجدداً.

٥ ــ مشهد يختصر الزمن

استرخى فيتو على المقعد الخلفي لسيارته، فيما انطلق سائقه بالسيارة مبتعداً حول المنعطف.

سرى الغضب الجليدي عبر جسده.

إذاً، رايتشل فايل... أو الأحرى رايتشل غراهام تعتقد أنها سوف تستخدمه كالعجينة، سوف تلويه لتحقيق أهدافها، تماماً كما فعلت والدتها اللعينة بوالده وصولاً حتى لحظة مماته.

الاذلال الذي لحق بوالدته كان تاماً وكاملاً. يومها حظي فيتو بالقدر الذي استطاع الحصول عليه من الرضى حين قام بطرد آرلين من شقة روما ثم من الفيلا. يومها أخذت آرلين الزمردات انتقاماً. حسناً! هو سوف يستعيدها الآن، لكن هذا ليس السبب الذي يدفعه للزواج برايتشل فايل! استعادة الزمردات هو مجرد ربح إضافي، أما الطبق الحقيقي فهو وجبة مختلفة تماماً. وهو كالانتقام، من الأفضل أن يؤكل بارداً؛ رايتشل فايل فتاة رائعة الجمال جذابة، ويمكنه أخذها إلى السرير.

عبرت فمه ابتسامة بطيئة قاسية. ما كان يجدر بها أن تحاول تحديه بهذا الشكل، فتقول له إنها غير مهتمة بإقامة علاقة معه إذا ما تزوج بها. ليس وهو قادر على رؤية جسدها يرتعش توقاً إليه، ما جعل جسده يجيش بتوق مقابل. سوف يستمتع كثيراً حين يُظهر لها كم هي مخطئة بشأن العلاقة بينهما. لهذا السبب سوف يسمح لنفسه بالزواج منها لكي يتذوق ذلك العسل الموعود. بعدئذٍ سوف يدعها تهترئ في الجحيم.

* * *

حدّقت رايتشل من كوة الطائرة إلى الخارج، وتساءلت عما تشعر به في تلك اللحظات. قررت في النهاية أنها لا تشعر بأي شيء باستثناء الذهول المخدر لأنها جالسة هنا بالفعل على متن طائرة خاصة تطير بها نحو الكاريبي كي تتزوج بفيتو فارنيستي. يجدر بها أن تشعر بالانتصار لأنها نجحت فعلاً في جعله يوافق على الزواج بها. لكن جل ما استطاعت أن تشعر به هو الخدر.

جلس فيتو في الجهة المقابلة متجاهلاً وجودها تماماً، بينما راح يعمل على مجموعة من الأوراق على الطاولة أمامه. بالكاد تكلم معها منذ أن نزلت على مدرج نورثولت في وقت سابق من هذا الصباح بعد أن أقلتها سيارة أرسلها لها، أما تعابير وجهه فبدت غير مقروءة.

جذبتها الذكريات بقوة، ذكريات تتعلق بفيتو في روما، كأنها حصلت منذ عهود في ذاك الحلم الذي لم يتحقق فعلاً. يومها شعرت بالارتياح برفقته الساحرة. راحا يضحكان ويتحدثان من دون أن ينفد منهما الحديث أبداً. بدا كما لو أنه يستمتع فعلاً برفقتها...

نظرت إلى الملف الموجود في حضنها، والذي ناولها إياه فيتو حالما استقرت في مقعدها. قال لها باختصار فيما بدت عيناه غامضتين: «اتفاق ما قبل الزواج. لن يتم الزواج قبل أن توقعي عليه».

قرأته رايتشل بأكمله. لم يحتوِ على أي مفاجآت. زمردات فارنيستي سوف تصبح ملكية غير مشروطة لفيتو فارنيستي في اللحظة التي تتم فيها مراسم الزفاف. حالما ينتهي الزفاف لن تأخذ رايتشل معها شيئاً أبداً. لا يحق لها بالمطالبة بأي قرش من ثروة آل فارنيستي، ذلك يتضمن عدم استخدامها مطلقاً لاسم فارنيستي، أو التحدث إلى الصحافة بخصوص زواجها. سوف توقع على هذا الاتفاق من دون أن تفكر ثانية. ما يهمها هو الزواج من فيتو لا شيء أكثر. أعلمها فيتو بإيجاز أنهما ذاهبان إلى أنتيليا، وهي جزيرة صغيرة في البحر الكاريبي. الزواج في ذلك المكان له صفتان حسنتان، بإمكان طالبي الزواج أن

يتزوجا على الفور من دون الانتظار الذي تشترطه قوانين المملكة المتحدة. وعلى العكس من المملكة المتحدة، فإن اتفاقات ما قبل الزواج هي محكمة التنفيذ وملزمة بحسب قانون جزر الأنتيل.

أطبق على رايتشل الحذر مجدداً، رافقه الاحساس بالواقع الكئيب. ما يحصل الآن غير حقيقي... غريب جداً... جداً... مؤلم جداً! طنّت الكلمات في ذهنها، فلم تقوَ على وقفها: في أحلامك...!

ترددت تلك العبارة في رأسها، فأحست بقلبها ينقبض.

سوف تتزوج من الرجل الذي ظنت ذات مرة أنه يجسد كل أحلامها، فتبين لها أنه بات كاللعنة بالنسبة إليها. إنه الرجل الذي وهبته حبها الأول، لكنه خان ذلك الحب، ثم هزأ منه ودمره. أما الآن فهي تسافر برفقته لإتمام مراسم الزفاف الذي سيجعل منها أضحوكة.

لكنني لا أفعل ذلك من أجلي أنا، بل من أجل والدتي! أنا مضطرة إلى القيام بذلك. أنا مضطرة! مع أن الأمر غير منطقي، بل إنه مريع ومضحك، لكنه جل ما أستطيع أن أفعله. لا يمكنني أن أرفض القيام بذلك! لم يتبقَ لآرلين سوى القليل من الوقت فقط. ما أحس به ليس بذي أهمية. والدتي فقط هي ما تهمني...

أحست بالحزن يطعنها، فأطبق الوجوم على وجهها. تابعت رايتشل التحديق خارجاً نحو الغيوم...

شيء ما جعل فيتو يرفع نظره عن أوراقه. أغرق نفسه منذ لحظة صعودهما على متن الطائرة في دراسة بعض العروضات الشديدة التعقيد المتعلقة باستثمار مشترك مع أحد الصناعيين الكبار في الشرق الأقصى. أراد الاهتمام بأي شيء يبعد ذهنه عما يفعله. مازال عدم التصديق يغمره. لا بد أنه مجنون لكي يفعل ما يفعله! يجدر به بكل بساطة أن يطلب من القبطان أن يستدير بالطائرة ليعود إلى لندن. ثم يرمي رايتشل فايل على الرصيف، ويسير مبتعداً إلى الأبد. تراقصت على فمه ابتسامة ضارية. إن إدارة شركة فارنيستي الصناعية ليست بالأمر السهل. هو أمر صعب للغاية، يرتب عليه مسؤولية

كبرى تجاه عماله الذين تعتمد معيشتهم عليه.

لا عجب أن والدي كان بحاجة إلى أوقات هروب مع امرأة جميلة حتى يبعد ذهنه عن الأعمال!

جاءته تلك الفكرة بالرغم من إرادته. أما الأمر اللعين فهو أن والده لم يكن يلجأ إلى زوجته من أجل تلك المتعة.

لا! لا تسلك ذاك الدرب. سار فيتو على ذلك الدرب من قبل، فداس على الأشواك لسنوات طوال. تحمّل عذاب والدته وانفطار قلبها بعد هجر والده لها. أما هو فلم يكن قادراً على القيام بأي شيء... أي شيء سوى توجيه الاتهامات والمقت. عانت والدته بصمت، ولم تظهر له كربها إلا من خلال تلك النوبات المضنية التي لطالما صادف حدوثها مع إقامة والده المؤقتة في روما. عندما كان والده وآرلين يعودان إلى روما كانت والدته تنسحب من مقر فارنيستي الضخم، فتذهب إلى الشاليه الخاص بالعائلة في جبال الألب الإيطالية، كانت والدته تتوق إلى زوجها الخائن بصمت وبؤس ووحدة، ولم تكن ترغب حتى بأن يبقى ابنها معها ليسهر عليها ويواسيها. في حين كانت آرلين غراهام تعيش الحياة المترفة، وتنفق من ثروة والده. والآن هو على وشك أن يتزوج من ابنتها.

رفع فيتو رأسه عن أوراقه، واستدار لينظر إلى رايتشل. كان وجه رايتشل مداراً إلى الجهة الأخرى، أما التعابير المرتسمة عليه فجمّدته تماماً. يجدر بها أن تشعّ بالانتصار لكن وجه رايتشل بدا كأنه منحوتاً من الحجر. ظهرت ملامحه ذابلة، فيما بدا كأنها ترى شيئاً ما ليس في الواقع مرئياً.

أدار رأسه بعيداً بحدة. رايتشل فايل لا تمتلك أي قدرة أو سلطة عليه! لا سلطة لها على مشاعره. اتكأ إلى الوراء لكي يرخي أطرافه، ثم أغمض عينيه. استحضر فيتو صورتها في ذهنه، بالرغم من أنها

تجلس على بعد بضع أقدام منه فقط. نضجت رايتشل خلال السنوات الماضية منذ آخر مرة وقعت فيها عيناه عليها. نضجت الدراقة اليانعة التي حان أوان قطفها الليلة... آه! نعم... الليلة، وتحت ضوء القمر الكاريبي سوف تكتشف لماذا وافق على الزواج منها.

غرقت رايتشل في عالم الأحلام، فالساعات الطويلة في الطائرة هدأت روعها وساعدتها على النوم. في حلمها كان الجو دافئاً... دافئاً وجميلاً. هي ترتدي فستاناً صيفياً أصفر قصيراً ذا ربائط رفيعة على ظهره أعارتها أياه زارا. راحت تركض صعوداً على الدرج الاسباني، وهي تتجنب بخفة حركة السياح الذين يجلسون على الدرج فقط... توقف رجل أمامها وهو يحمل وردة وحيدة للبيع، لكن رايتشل ابتسمت بكل بساطة وانطلقت مسرعة بعيداً عنه... استطاعت أن تسمع صوت فيتو يلحق بها ويصل إليها... ابتسم لها فيتو بعينيه الغامقتين الدافئتين. ظل يبتسم ويبتسم... أحست رايتشل أن قلبها ينعصر من فرط السعادة... فيتو... فيتو...!

تنفست وهي تنطق اسمه بصمت، كما لو أنه هتاف مبلسم للروح...

تغير المشهد... رأت رايتشل نفسها بين ذراعي فيتو، وهو يغازلها ويمازحها إلى درجة جعلت الحرارة تغمرها، فتأوهت من شدة التوق إليه... أحست رايتشل بنشوة من الفرح الغامر تلفها، ثم رحل فيتو...

راح أحدهم يهز كتفها برفق، لكن بثبات وإلحاح. فتحت عينيها وهي ترمشهما بارتباك. سمعت صوتاً يقول لها بنبرة مهذبة: «أنا آسفة جداً لأنني أيقظتك سيدتي، لكننا بدأنا بالهبوط، ويجب عليك أن تحكمي إغلاق حزام الأمان».

رأت مضيفة الطيران أمامها تستقيم في جلوسها. أما وراءها فرأت فيتو ما يزال يعمل على أوراقه، كما لو أنه لم يفعل أي شيء آخر طيلة

الرحلة. أحست أن قلبها ينقبض، إذ إن ذهنها ما يزال ممتلئاً بالحلم الذي استيقظت منه للتو. للحظة لم تفعل رايتشل شيئاً سوى التحديق، هي ما زالت متيمة به تماماً كما كانت وهي في الثامنة عشرة من عمرها. إنها تعشق وسامته ولون بشرته الأسمر البارد. أرادت أن تمد يدها لتلمسه... لتمسك به، لكنها لم تقوَ على ذلك.

عبر ذهنها حزن مريع، لا تسمحي لعواطفك بالتغلب عليك! فيتو ليس الرجل الذي ظننته مطلقاً. كل ما ظننت أنكما تتشاركان به كان مزيفاً. أنت لست في نظره سوى غبية. أراد أن يستغلك كل لحظة كنتما فيها معاً حتى تلك اللحظة الأخيرة عندما كشف نفسه على حقيقتها. ذاك هو فيتو فارنيستي الحقيقي، وما يزال هكذا. أجبرت رايتشل نفسها على تذكر ما قالته لنفسها عندما قصدته في مكتبه في الشركة: هذه صفقة عملية، لا شيء أكثر. لا ضرورة لتدخل المشاعر.

بدأت الطائرة تميل جانباً بانحناء شديد، إذ أخذت تدنو من المدرج، وتتجه إلى مكان الوصول. استطاعت رايتشل أن ترى امتداداً واسعاً من البحر، ثم فجأة ظهرت الأرض المليئة بأشجار النخيل الخضراء. ظهرت الصورة مصغرة أولاً، وبسرعة بدأت تظهر بحجمها الطبيعي عندما انزلقت الطائرة نزولاً نحو الأرض.

غمرها الدفء عندما خرجت من الطائرة، وشقت طريقها نزولاً على الدرج الضيق. أحست بحرارة شبه استوائية تحمل مزيجاً من الروائح.

تمت إجراءات دائرة الهجرة بسرعة في هذا المطار الصغير الذي يكاد يكون مهجوراً، وخلال دقائق أصبحا داخل سيارة مكيفة تقلّهما، بينما وضعت أمتعتهما القليلة في صندوق السيارة. تساءلت رايتشل بتكاسل إلى أين تراهما يتوجهان، ثم أدركت أن الأمر لم يعد هاماً. استندت إلى الوراء في زاوية مقعدها، محاولة البقاء بعيدة قدر استطاعتها عن فيتو.

لم يتكلم فيتو معها، وسُرّت رايتشل لذلك. ليس هنالك ما يقولانه

لبعضهما. زمردات فارنيستي موجودة في حقيبة يدها، فهي تستقر بأمان في حقيبة مخملية داخل قسم مستقل مقفل بسحاب.

كانت رايتشل مشوشة الفكر ومحبطة تماماً فلم تلاحظ سوى أشجار النخيل بالاضافة إلى الطريق الكثيرة التوءات المغطاة بالحجارة. لاحظت على الجانبين أيضاً وجود حقول افترضت أنها حقول قصب السكر. وما لبثت السيارة أن توقفت على حافة مرسى بالقرب من المحيط، حيث تجمعت بضعة مبان مهدّمة حول المرسى. رأت قارباً ذا محرك مربوط بانتظارهما. عبست رايتشل، وسألت: «ماذا بحق السماء...؟».

وفر لها فيتو تفسيراً سريعاً، إذ قال: «نحن ذاهبان إلى سان بيير. إنها جزيرة خارج البلد فيها أناس متخصصون بحفلات الزفاف».

لم تقل رايتشل أي شيء، فليس هنالك ما يقال. عوضاً عن ذلك خرجت من السيارة وصعدت على متن القارب. جلست رايتشل على المقعد فأغمضت عينيها عن عمد، بينما رفعت وجهها نحو الشمس. برّد نسيم البحر وجهها، وما لبثت أن أحسّت أن القارب يغوص قليلاً حين صعد فيتو والربّان خلفها. شعرت بالحركة التي تدور حولها فيما تم تحميل الأمتعة. بعدئذٍ تحول سائق السيارة إلى سائق للقارب، فانطلق به نحو البحر.

لم تطل بهم الرحلة، وقدرت رايتشل أنها استغرقت حوالى الخمس عشرة دقيقة أو ما يقاربها، ثم توقف القارب في مرسى آخر. هذه المرة لاحظت أن مكان الوصول في سان بيير هو أكثر روعة وجمالاً، كذلك هي وسيلة النقل التي تنتظرهما. إنها عربة يجرها حصان صغير، ذات مقاعد وثيرة صفراء مشرقة جداً، أما سائق العربة فيرتدي قبعة وقميص مفتوحة عند العنق.

أعلن سائق العربة بابتسامة مشعة وبلهجة كاريبية واضحة: «أهلاً بكما إلى سان بيير، جزيرة شهر العسل!».

سمحت رايتشل لربان المركب أن يساعدها للصعود إلى العربة،

فيما شعرت أنها غبية ومنافقة. حرصت على الجلوس في الجانب البعيد من مقعدها بقدر المستطاع.

هذه الرحلة استغرقت وقتاً أقصر، إذ بالكاد استمرت خمس دقائق، وجل ما فعلته هو أنها نقلتهما حول البر الرئيسي نحو الخليج التالي. لكن بعد أن تخطوا أشجار النخيل التي كانت تحجب المنظر لم تقوَ رايتشل على منع نفسها من إطلاق هتاف استمتاع وإعجاب. بدا الخليج ساحراً كما لو أنه صورة من كتيّب سياحي دعائي. في مكان بعيد من الشاطئ أقيم بناء منخفض أبيض على نمط المزارع، تطوقه أشجار النخيل وتنتشر حوله الأزهار القرمزية اللون.

استدار سائق العربة، فيما أعلن لهما: «دار شهر العسل!».

فكرت رايتشل أن المكان صغير نوعاً ما بالنسبة إلى الفنادق، لكن لعل المقصود به هو الحصول على شيء استثنائي مختلف عن ضخامة الفنادق الأخرى. لم يمر الحصان أمام الفندق بل توجه إلى فسحة مخصصة للعربات تؤدي نحو بابين مزدوجين واسعين يظللهما رواق مرفوع على أعمدة. أوقف سائق العربة الحصان هناك.

انفتح البابان معاً، فخرج رجل ومشى مستقيم الظهر كأنه يبحث عن شيء ما، وفكرت رايتشل أنه يبدو كرئيس الخدم من العصر الفيكتوري. اقترب الرجل من العربة، حتى يساعد الواصلين على النزول. قفز فيتو وحده برشاقة، لكن رايتشل سرها أن تمسك بيد رئيس الخدم.

أعلن الرجل بصوت مهيب: «أهلاً بكما في دار شهر العسل، سيدي، سيدتي. اسمحا لي أن أرشدكما إلى غرفتيكما».

لم تعلم رايتشل ماذا عليها أن تتوقع، لكن من الواضح أن فيتو حجز غرفتين منفصلتين، بالرغم من أن ذلك يبدو مستغرباً.

حالما دخلا إلى الفندق، نظرت رايتشل في أرجاء البهو الفسيح المغطى بخشب الماهوغاني الغامق اللون، بدا الجو أكثر برودة في

الداخل، وأحست بنسيم يهبّ عبر الغرفة المضيئة الواسعة.

عبست قليلاً عندما لاحظت أن الفندق يتميز بمفروشات جميلة وبموظفين، من الواضح أنه مكان مكلف، لكن فيتو رجل ثري، وما من داع لأن ينزل في أماكن متواضعة حتى وهو يتزوج من امرأة مثلها. لم يكن هنالك مكتب للاستقبال أو نزلاء آخرين أو حتى موظفين.

تبعت رايتشل رئيس الخدم، الذي أعلن بذلك الصوت نفسه أن اسمه هو أندريه، وأنه سوف يكون في خدمتهما بالكامل أثناء إقامتهما هنا. قادهما نزولاً على طول رواق عريض نحو الجهة اليمنى، إلى أن توقف خارج الباب. رنّم الرجل قائلاً: «غرفة السيدة».

فتح الباب وقادها نحو الداخل. دخلت رايتشل إلى الغرفة ممتنة، ولم يسعها أن تتمالك نفسها إذ أجالت بصرها في أرجاء الغرفة بسرور. امتدت خزانة ملابس طويلة بيضاء على أحد الجدران، فيما تحركت مروحة كهربائية بتكاسل في وسط السقف المرتفع. توسط الغرفة سرير كبير جميل ذو أربعة أعمدة غلفه غطاء من القماش الناعم. تقدمها أندريه، ففتح مصراعي النافذة البيضاء على وسعهما.

بدا المنظر رائعاً من خلال النافذة، وفي الخارج امتدت شرفة مطلية باللون الأبيض على طول الغرفة. خلفها امتد درب يؤدي مباشرة نحو بركة السباحة التي تألقت مياهها الصافية تحت أشعة الشمس. أما في الناحية الأبعد فتألق البحر الفيروزي بلونه المذهل.

أحست رايتشل بارتفاع في معنوياتها لسبب لم تستطع تفسيره.

غمغم أندريه شيئاً ما. ابتسمت رايتشل وهي شاردة الذهن، وخطت إلى الخارج نحو الشرفة حتى تحظى برؤية أفضل للمنظر. بعد بضع لحظات عادت إلى الداخل، لتجد أنها صارت وحيدة في الغرفة. أسرعت رايتشل نحو الحقيبة وفتحتها. كانت قد وضعت ثوب السباحة بين أمتعتها حالما علمت أن هذا الزفاف السخيف لن يتم في أحد مكاتب تسجيل الزيجات في لندن بل على جزيرة ما في البحر

الكاريبي.

بعد مضي خمس دقائق توجهت إلى الخارج نحو بركة السباحة. سمحت لشعرها أن ينفلت داخل الماء. برّد الهواء وجهها الرطب بالرغم من حرارة الأجواء، إلا أن أي شخص آخر من نزلاء الفندق لم ينضم إليها ليشاركها السباحة في البركة. استرخت رايتشل، فاستلقت على ظهرها وطفت، وما لبثت أن أحست أن بعض التوتر قد استرخى وخرج من جسدها. بعد قليل أحست أن جسدها انجرف فارتطم برفق بحافة البركة. استدارت بتكاسل فألقت مرفقيها على حافة البركة المغطاة بالآجر. رمشت رايتشل حتى تخرج الماء من عينيها، ثم رفعت رأسها قليلاً لكي تحدق نحو الفندق من فوق المرج الأخضر.

هناك رأت فيتو يسير على طول الدرب متوجهاً نحوها.

بسرعة انكمش الوقت وتبخر الزمان...

أحد عشر عاماً انقضت برمشة العين. أصبحت رايتشل في الرابعة عشرة من عمرها مجدداً، فيما أكثر الرجال وسامة في العالم يسير متجهاً نحوها. سمعت أزيزاً في رأسها، وللحظة وجيزة استثنائية ظنت فعلاً أنها انسلت راجعة بالزمن إلى الوراء. أصبحت مجدداً تلك الفتاة المراهقة التي تحدق مصعوقة نحو الرجل الإيطالي الذي يدنو منها بأناقة ورشاقة. أما هو، فبدا تماماً كالسابق... إنه يضع نظارتين شمسيتين سوداوين، وكالسابق تماماً تبدو ملابسه ذات قصة رائعة، أما قميصه الفاتحة اللون فمفتوحة عند العنق. فقط الكنزة المدلاّة حول كتفيه لم تكن موجودة.

توقف فيتو، فيما حدّقت رايتشل مصعوقة ومتجمدة الآن، وبدا هو كما لو أنه تجمّد في مكانه.

هل يتذكر؟ وجدت رايتشل نفسها تفكر بجموح بالغ. هل يتذكر تلك اللحظة منذ أحد عشر عاماً؟ أم هو ببساطة يشعر بالاشمئزاز لرؤيتها الآن.

لم تنتظر لتقرر. أرخت جسمها لتعود وتسقط في الماء. تابعت السباحة بعناد وتصميم ذهاباً وإياباً في البركة، وعندما سمحت لنفسها أخيراً أن تتوقف، لم يكن هنالك من أثر لفيتو.

كانت رايتشل قد استحمت للتو وغسلت شعرها عندما سمعت قرعاً على الباب وهي ما تزال داخل الحمام. فتحت الباب بحذر، بعد أن لفّت شعرها بالمنشفة، ثم لفّت منشفة حول جسدها لتغطيه. كان فيتو واقفاً داخل الغرفة، وبدا من الواضح أنه ينتظرها حتى تخرج.

شعرت رايتشل بالتوتر على الفور.

كان فيتو قد خلع نظارتيه السوداوين، لكن عينيه بقيتا محجوبتين تماماً عندما استقرتا عليها، كما لو أنه ما يزال يضعهما.

قالت رايتشل بتحجر: «نعم؟».

تابع فيتو النظر إليها للحظة، فبدأت تشعر بعدم الارتياح أكثر فأكثر. اكتسحها على الفور إحساس بالهلع. ماذا بحق السماء تُراها تفعله هنا، على بعد أربعة أو خمسة آلاف ميل عن لندن، وهي على وشك أن تتزوج من رجل يمقتها بقدر ما تمقته؟ لا يمكنها أن تسير في هذا الموضوع... لا يمكنها...

يمكنها أن تتزوج بأي شخص آخر، لكن ليس بفيتو فارنيستي. يا إلهي... لا! ليس فيتو... سبب لي فيتو الكثير من الأذى... لا يمكنني أن أتحمل الألم! بكل بساطة لا أستطيع!

بدأ فمها يرتعش.

- سوف يقام حفل الزفاف بعد ساعة ونصف الساعة. احرصي على أن تكوني جاهزة.

اخترقت كلماته الضعف المفاجئ الموهن الذي اكتسحها على حين غرّة. عضت رايتشل على شفتها السفلى، وأجبرت نفسها على أن تتراجع إلى تلك الحالة من الهدوء غير الطبيعي الخالي من الأحاسيس. من الضروري جداً أن تتمسك بالهدوء ما دامت موجودة هنا. استنشقت

نفساً عميقاً وحاداً، ثم أومأت بإيجاز، واتجهت نحو الباب ففتحته كي يخرج فيتو منه، فهي لم ترغب بوجوده في غرفة نومها. إنها لا تريده في أي مكان قريب منها، فذلك يفوق قدرتها على التحمل، بل هو خطير جداً بالنسبة إليها. لكن فيتو لم يتوجه نحو الباب. عوضاً عن ذلك استدار على عقبيه، فمشى خارج الأبواب الفرنسية الطراز نحو الشرفة، ثم اختفى إلى الجهة اليمنى منها.

تملك رايتشل التوتر فجأة لفكرة أنه قادر على الدخول إلى غرفتها من خلال الأبواب الفرنسية غير المقفلة. أسرعت إلى حيث وضعت حقيبة يدها على السرير. كانت الزمردات ما تزال هناك!

زمت فمها بتوتر. فيتو فارنيستي سوف يستعيدها، لكن ليس قبل أن يصبح اسمه على وثيقة زواجهما، ويصبح خاتمه في إصبعها. خلال ساعة ونصف الساعة من الوقت...

٦ ــ ذكرى أم حلم

بدت الشمس في السماء جرماً متوهجاً في أحضان الغيوم القرمزية اللون، أما البحر فبدا متوقداً بلون ذهبي غامق، وصدح صوت الموسيقى المنبعث من مكبّرات الصوت المخبأة خلف النباتات الخضراء. أدركت رايتشل أن المعزوفة هي لباخ، وبالرغم من أنها لم تتعرف فوراً على اسم المقطوعة الموسيقية، إلا أنها بدت مألوفة جداً. آه! لا بد أن دماغها لا يعمل بشكل جيد الآن بالذات. تطلب الأمر كل ما لديها من طاقة حتى تستمر بالسير فقط.

مشت ببطء تام، واكتشفت أن من الصعب أن تفعل أي شيء غير ذلك. ارتدت فستاناً كانت قد اشترته في اليوم السابق، وكلّفها أكثر من المبلغ الذي أرادت أن تدفعه. إنه فستان من الساتان ذي لون أخضر باهت جداً، تألّق على طول جسدها ثم امتد خلفها على شكل ذيل صغير. الجزء الأعلى من الفستان ذو ثنيات مطوية بنعومة وغير منمقة، لكنها لا تحتاج إلى أي زينة، فالنار الخضراء المتألقة المنبثقة من الزمردات حول عنق رايتشل وفرّت تلك الزينة والتألق.

أحست بالهلع وهي تسير ببطء عبر الهواء الدافئ، على حذائها العالي الكعبين. اتجهت نحو الأشخاص المنتظرين تحت خيمة حريرية تستحم بنور الشمس الغاربة.

هزها الفزع والرعب حتى كادا يذيبان أوصالها. لا حق لي أبداً بأن أكون موجودة هنا! لا حق لي أن أقوم بهذا!

لكنها مضطرة إلى القيام بذلك. هي تعلم أن على الأحياء واجب

www.liilas-romancia.com

غامر تجاه الذين يحتضرون. لم يتبق لوالدتها أي شيء... لا شيء.

لا خيار أمامي. يجدر بي أن أقوم بالأمر!

استقرت عيناها على مجموعة الناس وقد اقتربوا من مرآها وهي تدنو منهم. واحد منهم فقط بدا بارزاً... فيتو فارنيستي يقف هناك بانتظارها، فيما بدا وجهه صافياً كالرخام. ارتدى فيتو سترة سهرة سوداء رسمية، فبدا مدمراً جداً بروعته إلى درجة أن رايتشل أحست بمعدتها تنقبض. بدا طويلاً، نحيلاً ويخطف الأنفاس، إلى درجة أنها لم تقوَ على القيام بأي شيء سوى التحديق به.

حاولت أن تجرجر عينيها بعيداً عنه، وأن تركز على المسؤول الرسمي الذي سوف يدير مراسم الزفاف. لكن عينيها تسمرتا على فيتو.

أنا مجنونة! مجنونة كي أفعل هذا!

لكن الأوان فات الآن على التراجع. سوف تتزوج من فيتو فارنيستي، وتجعل من نفسها زوجته الشرعية، ثم سوف تعود إلى ديارها لتخبر والدتها المحتضرة بأن الأمر تم. بعدئذ لن ترى فيتو مجدداً.

استطاعت أن ترى أن فيتو ينظر إليها، لكن عينيه لم تكشفا شيئاً. ما إن اقتربت رايتشل منه حتى وجدت نفسها غير قادرة على ملاقاة عينيه، فانزلقت نظراتها بعيداً باتجاه الشمس الغاربة. مجدداً انسكب عبر جسدها ذاك الاحساس بالهلع الخرافي.

سمحت رايتشل لنفسها أن تتصور للحظة مريعة وجيزة ما قد يكون عليه الأمر لو أن هذا الزفاف حقيقي، فصارت في تصوّرها زوجة حقيقية لآل فارنيستي. ما لبثت أن قاطعت رؤياها تلك كلمات فظة، خشنة، مدمرة متهكمة، مزدرية: في أحلامك...!

فدمرت كل آمالها، تماماً كما دمرها فيتو فارنيستي مرة من قبل.

وصلت رايتشل إلى المنصة فتوقفت.

تجمّع عدد من الأشخاص الأنتيليين، القائم بالاحتفال، ومساعده

مع شخصين آخرين افترضت رايتشل أنهما موجودان هناك بصفتهما شاهدين. بالإضافة إلى هؤلاء، سُرت رايتشل عندما رأت مصوّراً فوتوغرافياً مع بعض المعدات الرائعة في متناول يده. كان جميع الموجودين يرتدون بذلات سوداء وهم يبتسمون فرحين. رفع القائم بالاحتفال يديه، لكن قبل أن يتمكن من التفوه بأي كلمة، تكلم فيتو قائلاً: «لحظة واحدة».

أدار رأسه نحو رايتشل وقال: «يجب عليكِ أن توقعي على اتفاقية ما قبل الزفاف. أم هل ظننتني سوف أنسى؟».

تصلبت شفتا رايتشل بسبب النبرة التهكمية في صوته، لكنها لم تقل أي شيء. على العكس من ذلك استدارت ببساطة إلى حيث أشار فيتو بيده اليسرى نحو وثيقة موضوعة على الطاولة إلى جانب سجل الزيجات. إنها الوثيقة نفسها التي قرأتها على متن الطائرة، فلم تزعج نفسها بأن تقرأها مجدداً. بكل بساطة فتحت على الصفحة الأخيرة، ووقعت اسمها بسرعة وعدم مبالاة، ثم استقامت وعادت إلى مكانها أمام القائم بالاحتفال الذي راح ينظر إليها بتركيز.

خاطب فيتو الشاهدين فحثهما قائلاً: «إذا كنتما لا تمانعان؟».

دون الشاهدان اسميهما بدافع الواجب على اتفاق ما قبل الزفاف الذي يقضي بأن تترك رايتشل هذا الزفاف من دون أي قرش من أموال آل فارنيستي. تحقق فيتو من التواقيع، ثم ذهب ليقف إلى جوار عروسه، وقد بدا وجهه خالياً من التعابير.

شعرت رايتشل بزمردات فارنيستي الموضوعة حول عنقها تضغط عليها بوزنها الثقيل، ولأول مرة سرّت لوجودها هناك. غمرها الاحساس بالتحدي. لا يجدر بها أن تشعر بالذنب! لا داعي لأن تشعر بتأنيب الضمير بسبب ما تفعله الآن. الزمردات هي الثمن الذي سيسمح لها بأن تشتري لها زوجاً جيداً. حسناً! سوف تتخلص من هذا الزوج بأسرع مما يفكر هو بالتخلص منها!

غمرها الشعور بالمرارة ممتزجاً بشعور من الأسى الخارق. والدتها بعيدة بعد هذا المحيط، مستلقية في سرير في المستشفى، وهي تعيش على مسكنات الآلام، أما حياتها فتتلاشى شيئاً فشيئاً... يوماً بعد يوم.

بدأت مراسم الزفاف؛ كلمات سمعت رايتشل نفسها تتفوه بها. سمعت صوت القائم بالاحتفال. سمعت الصوت العميق ذا اللهجة الإيطالية، التي تحدث بها الرجل الواقف إلى جانبها، موافقاً على أن يصبح زوجها، ورأته يزلق الخاتم في إصبعها. تكلم القائم بالاحتفال ناطقاً بالإعلان الأخير الذي جعلها زوجة لفيتو، أما رايتشل فأحست بالخدر التام. لم تسمع تهاني القائم بالاحتفال بشكل مهني ترافقه ابتسامة، ولا تهاني الشاهدين. وقفت هناك بكل بساطة وهي تحدق نحو البحر حيث رسم آخر شعاع من الشمس خطاً ذهبياً على امتداد الأفق، ولم تشعر بأي شيء...

رفعت يدها اليسرى ونظرت إلى أناملها. هناك على إصبعها الثالث التمعت الحلقة الذهبية التي وضعها فيتو منذ قليل. رمشت عينيها بسبب وميض الضوء، ثم تلاه وميض آخر. عادت في تلك اللحظة إلى الواقع، إذ أدركت أن المصور بدأ يلتقط الصور الفوتوغرافية.

أجبرت رايتشل نفسها على الابتسام، فحاولت أن تبدو كالعروس المشعة. هي بحاجة إلى الصور كدليل ملموس لتريه لوالدتها، دليل على أن ابنتها أصبحت فعلاً عروساً لآل فارنيستي. وقفت إلى جانب فيتو الآن في هذا الزفاف المزيف وهي تبتسم لآلة التصوير آملة ألاّ يبدو فيتو متجهم الوجه. فجأة أحست باندفاع ملح جعلها تحدق إلى الأعلى... نحوه، وعلقت أنفاسها في حلقها.

بدا وجه فيتو لامبالياً، لكن بالرغم من ذلك غمرها شعور بالانتفاض في أحشائها. فجأة، وعلى حين غرة نظر فيتو إلى الأسفل نحوها. توقد شيء ما في

عينيه بدا أشبه بلسعة السوط على جلدها، فأحرقها. غمرها ذالك اللهب للحظة، ثم تلاه وميض كالاحتراق. إنه وميض آلة التصوير التي التقطت تلك اللحظة.

هزت رايتشل نفسها مبتعدة عن فيتو، فتعثرت قليلاً وهي تخطو إلى الأمام. لفتت نظرها الكتابة المنمّقة على وثيقة الزواج، فاستدارت لترفعها عن الطاولة، لكن فيتو سبقها إلى ذلك فطواها ووضعها داخل جيب سترته الداخلية. أدركت رايتشل السبب. هو لن يسمح لها بوضع يديها على تلك الوثيقة إلى أن يحصل هو على زمرداته.

وقفت متصلبة فيما حول فيتو انتباهه نحو القائم بالاحتفال ومساعديه، فشكرهم على عملهم. سيطر عليها مجدداً ذلك الاحساس بالهلع الخرافي الذي أخذ يرتعد داخل جسدها.

استقرت عينا فيتو على صورة رايتشل الجانبية، فاخترقه شعور بعدم التصديق وصل حتى أحشائه. لقد فعل ذلك... تزوج رايتشل فايل ابنة آرلين غراهام. أحس لوهلة بركلة في أحشائه، كما لو أنه فعل للتو شيئاً لا يمكن الرجوع عنه... لا يمكن إصلاحه. لا! هو يعرف تماماً ما الذي يفعله، ولا يمكن لهذا الزواج أن يغير أي شيء! الزواج المدني ليس عقداً مقدساً، إنه اتفاق ذو صبغة قانونية. إن الوثيقة الموجودة في جيبه تجعل من رايتشل فايل زوجته في الواقع فقط، لكن ليس في الحقيقة. إنه واقع يمكن العودة عنه باتفاق قانوني بسيط آخر: الطلاق.

جل ما حققته تلك المراسم الموجزة التي تمت خلال خمس دقائق، هو أنها سلمته رايتشل فايل إلى ما بين يديه. بالإضافة إلى زمردات فارنيستي. سقطت نظراته نزولاً، تعلقت الزمردات على بشرة رايتشل البيضاء كالنار المتوقدة الخضراء. ما إن نظر إليها حتى أحس بتلك الركلة في أحشائه مجدداً. لا يحق لها وضع هذا العقد... لا يحق لها مطلقاً. إنها تلوثه بلمستها. هذا دعك من امتلاكها له! يجدر به أن ينتزعه بالقوة عن عنقها! مع ذلك... إنها تبدو كاملة جداً وهي

ترتدي العقد، فالجواهر الخضراء تبجل عنقها النحيل الشبيه بعنق البجعة، بدا العقد كما لو أنه صُمِمَ خصيصاً لها، ولها وحدها. كيف يمكنها أن تبدو مناسبة تماماً وهي تضع هذه الجواهر التي لم تصمم مطلقاً لامرأة من نوعها؟

عادت نظراته إلى الأعلى، وضاقت عيناه. التعابير المرتسمة على وجه رايتشل ما زالت هي نفسها كتلك التي ظهرت على وجهها وهي في الطائرة عندما رآها تحدق خارج الكوّة. بدت تعابيرها حينها كئيبة باردة كثلج الشتاء. أحس فيتو كأن شيئاً ما يطعنه، شعوراً ما لا يقدر على تسميته. كاد يشعر بيده تمتد كي تلامسها.

فجأة أدرك سبب التعابير الكئيبة التي تظهر على وجه رايتشل. طعنه إدراكه هذا. إنها تفكر بعشيقها. الرجل الذي رفض أن يتزوجها فلذعها رفضه لها، ما دفعها إلى الانتقام منه لرفضه لها بازدراء. ذلك هو سبب تحديقها بتلك النظرة الضائعة اليائسة. إنها تفكر به. وتتوق إليه!

تصلبت ملامح وجهه، والتمعت عيناه بضوء بارد متهكم. قبل أن تنتهي هذه الليلة لن تتمكن رايتشل فايل من التفكير بأي رجل آخر سواه! سوف يشغل كيانها بأسره هذه الليلة... وقدر ما يختاره من الليالي بعد ذلك. قد تكون رايتشل فايل ابنة والدتها حتى آخر ذرة من كيانها، لكن ذلك يعني أيضاً أنها ورثت موهبة والدتها الطبيعية! أراد أن يكتشف ذلك منذ سبع سنوات لكن الظروف عاكسته، أما الآن فسوف يكتشف ذلك.

جالت في ذهنه كلمات رايتشل المزدرية المهينة التي وجهتها له: «إن إقامة علاقة حميمة معك ما كانت لتصبح جزءاً من الاتفاق. مواهبك الخارقة في السرير ليست مطلوبة... أنا لا أتحرق لإقامة علاقة حميمة معك، بل إنني أرفضها بغض النظر عن مدى براعتك في السرير».

التوى فم فيتو. سوف يجعل رايتشل فايل تتعلق به وتتوسله قبل حلول الصباح. هذا ما تستحقه!

فكرت رايتشل، لا جدوى في أن تشعر بالسوء حيال ما فعلته، يجب عليها بكل بساطة أن تسير قدماً، وأن تعد الساعات حتى تعود إلى لندن لكي تذهب إلى المستشفى فتنقل إلى والدتها البشرى السارة. أحست بشفتيها تلتويان. أهي حقاً بشرى سارة؟ لقد أجبرت هذا الرجل على الزواج منها فيما هو يمقتها كما تمقته هي تماماً.

بشكل لا إرادي استدار رأسها قليلاً نحو الرجل الذي يقف على بعد بضع أقدام فقط منها، ومع ذلك فهو على بعد أميال عنها. تحت ضوء هذا الغروب الاستوائي بدت بشرة فيتو أكثر اسمراراً، أما ملامحه فبدت محددة بالظلال مثل النور والظلام.

طاردتها تلك الأبيات من أكثر أشعار شكسبير مرارة: «كنت قد أقسمت إنك جميل، يوم رأيتك مشرقاً. يا من نورك أسود كالجحيم، ومظلم كعتمة الليل...».

إنها تعلم... يا إلهي! إنها تعلم... ما الذي دفع الكاتب إلى تدوين هذه الأبيات.

استنشقت نفساً عميقاً غير ثابت، إن مشاعرها تجاه فيتو فارنيستي لا علاقة لها بالموضوع إطلاقاً. رفعت يديها إلى قفا عنقها، فيما تلاعبت بقفل العقد. يجب عليها أن تكون رشيقة الحركة، خالية من المشاعر. مهما يكن، فهذا الزواج مجرد صفقة عمل لا شيء أكثر مهما كانت مشاعرها تجاه فيتو يوماً ما، فقد ماتت هذه المشاعر منذ زمن. ماتت مباشرة في اللحظة التي أعلن لوالدة رايتشل أنها هي من أغوته...

تكلمت رايتشل بإيجاز قائلة: «حالما تحصل على الزمردات أنا أريد وثيقة الزواج».

حمل صوتها حدّة ما، ولم تزعج نفسها بأن تلينه.

- لا تنزعي العقد من عنقك!

توقفت رايتشل بسبب ذهولها. طالبته قائلة: «لِمَ لا؟».

ابتسم لها فيتو وقال: «الليل ما يزال في بدايته، يا عزيزتي».

حدقت رايتشل نحوه بحذر. ما الذي يجري هنا؟ ثم أجابته برد مضاد وقد انخفضت يداها إلى الأسفل: «ما الذي تعنيه بذلك؟».

- ما أعنيه هو أنني أعتقد أنهم يتوقعون قدومنا لتناول العشاء.

قال فيتو ذلك مشيراً برأسه نحو الفندق.

- أنا لست جائعة.

قال: «لكنني جائع، وفضلاً عن ذلك فأنت بحاجة إلى الطعام كي تحافظي على قوتك، وعلى قوامك الجميل».

قال ذلك فيما أومضت نظراته عليها. أحست رايتشل أن تلك النظرات هي أشبه بالنار التي تجلد جسدها. قالت بحدّة: «توقف عن هذا فيتو. ما الذي تظن نفسك فاعلاً بحق الجحيم؟ لو شعرت بالجوع سوف أطلب خدمة الغرف. يمكنك أن تأكل في غرفة الطعام».

هزّ فيتو رأسه، فاستقرت عيناه عليها وقال: «آه، لا! أثرنا ما يكفي من الشكوك بتصرفاتنا. صحيح أن القانون الأنتيلي يسمح بالزيجات السريعة، إلا أنه يفضل أن تكون زيجات أصلية حقيقية. ما يعني أنه يفترض بنا أن نبذل قصارى جهدنا حتى نتصرف بأسلوب راقٍ لكي نريح أذهانهم بخصوصنا، وذلك بأن نطلق العنان لنفسينا في عشاء رومنسي لشخصين مضاء بالشموع».

رماها بنظرة أخرى ليوقعها في شركه، ما جعل رايتشل تستسلم مذعنة للأمر: «حسناً! سوف نتناول العشاء في غرفة الطعام. سأذهب لأغير ملابسي».

ما إن حاولت أن تستدير حتى مد فيتو يده فأوقفها. تجمدت رايتشل في مكانها. إنها لا ترغب بلمسة فيتو لها ولا في أي مكان.

- يجدر بالعروس دوماً أن تتناول العشاء وهي ترتدي فستان عرسها وكل زينتها.

عضت رايتشل على شفتها، وقالت: «ظننت أنك تريدني أن أخلع عقد الزمرد عن عنقي بأسرع ما يمكن! هذا هو السبب الذي دفعك إلى

الزواج بي في نهاية الأمر، لكي تستعيد الزمردات؟».

ردّ: «سوف أخلعك العقد لاحقاً. هل تشكين بذلك؟».

ضغطت رايتشل شفتيها سوياً، فقالت: «لا. بالمقابل أنا أريد وثيقة الزواج. هذا كل ما أريده منك».

ظهر ذلك الالتماع مجدداً في عينيه، فأحست رايتشل بالدماء تندفع في عروقها. فكرت، لا بد أن السبب هو تغير المناخ والتوقيت. لا يمكن أن يكون أي شيء آخر... يجب ألا يكون...

تمشى فيتو إلى جانبها وهما يسيران على طول الدرب نحو الفندق. فكرت رايتشل، أنه يبدو كمن لا همّ لديه على الاطلاق، أما هي فوجدت أن الذكريات تتسلل إلى ذهنها. تلك الذكريات غير المرغوبة. ذكريات تتعلق بفيتو وهو يتمشى برفقتها عند الغسق عبر الساحة العامة الرومانية. يومها تحدثا سوياً... ضحكا سوياً... فرحا سوياً... راح الألم ينخر جسدها لدى تخيلها هذه الذكريات.

قادها فيتو صعوداً على الأدراج الخشبية نحو الشرفة العريضة التي تمتد على طول واجهة الفندق.

المرة الماضية كان يخدعني، أما هذه المرة فهو يخدع فقط موظفي الفندق ونزلاءه!

عبرت رايتشل البابين المزدوجين نحو غرفة الطعام ذات السقف المرتفع. لم تكن هنالك سوى طاولة واحدة في غرفة الطعام مثقلة بالآنية الفضية والكريستال، ومضاءة بالشموع، كما أحيطت بأزهار جميلة منسقة في مجموعات وباقات.

رأت أحدهم يتجه نحوهما. إنه أندريه رئيس الخدم، وهو يشعّ من فرط سروره. قادهما الرجل نحو الطاولة. أعلنت رايتشل بدهاء: «أنا لا أريد غرفة طعام خاصة. أرغب أن أتواجد في غرفة الطعام الرئيسية، رجاءً».

بدا الرجل مرتبكاً مشوشاً. فتكلم الصوت من خلف رايتشل بنبرة

جافة ولهجة واضحة: «ليست هناك غرفة طعام رئيسية، يا عزيزتي».

عبست رايتشل، وسألت مرتبكة: «هل لدى بقية نزلاء الفندق غرف طعام خاصة بهم؟».

ردّد أندريه قائلاً: «النزلاء الآخرون؟ سيدتي... ليس هنالك من نزلاء آخرين. هذا ليس فندقاً. إنها فيلا استأجرها زوجك... دار شهر العسل».

حدّقت رايتشل به مذهولة، ثم استدارت نحو فيتو.

- أليس هنالك من أحد غيرنا هنا؟

لكنها لم تكن بحاجة إلى جواب، فهي عرفت الجواب من تلقاء نفسها. هذه الدار هي نوع من البيوت الخاصة المعدّة لتنظيم الزيجات للأزواج الأثرياء بما يكفي حتى يحظوا بالمكان لأنفسهم فقط. فتحت رايتشل فمها لتعترض، فهي غير قادرة على أن تبقى هنا بمفردها مع فيتو حيث لا نزلاء آخرين، ثم أقفلت فمها مجدداً إذ لاحظت الضوء المحذر في عيني فيتو يذكرها بألاّ تثير الشبهات والشكوك حولهما.

قدمت لهما صوان صغيرة من الأطعمة النيئة الصغيرة الشهية المظهر. وضعت أمام رايتشل بطاقة بقائمة الأطعمة ذات أحرف مطبوعة باللون الفضي، وبطاقة أخرى وضعت أمام فيتو. غمرها إحساس بعدم الواقعية المطلقة. قد تكون هذه الوجبة أكثر الوجبات خداعاً ورياءً على الإطلاق، لكن ليس هنالك ما بوسعها أن تفعله. لا بأس، من الأفضل أن تتحلى بالصبر...

انتهت محنة إتمام مراسم الزفاف، وسرعان ما ينتهي هذا العشاء. يجدر بهذا الجو المحيط بها أن يساعدها على تهدئة أعصابها.

فكرت، حققت أمنية والدتي وهي على فراش الموت، لذا يمكنني أن أشعر بالرضى!

انزاح عن كاهلها آخر ما حملته من توتر، فيما تناولت الطعام الشهي وألحقته بالحلوى اللذيذة المذاق. لم تدرك رايتشل كيف حصل

ذلك، لكن بشكل ما مرّ العشاء بسهولة أكبر مما تصورت.

انحلّ التوتر بعيداً عنها مع كل دقيقة تمر. ترافق ذلك طيلة الوقت مع ارتفاع مدى إدراكها الزائد لوجود فيتو. حاولت رايتشل جاهدة ألاّ تنظر إليه. لم تلاقِ نظراتها نظراته علانية مطلقاً، لكنها فقط في ومضات لا تقاوم التقطت لمحات له مرة بعد مرة. علمت أنها تتصرف بغباء جنوني. لكن بالرغم من ذلك أحست أن معرفتها بأن عينيها لن تقعا عليه مجدداً حتى آخر حياتها هو أمر يخزها ويؤلمها. سمح فيتو لنظراته أن تومض فوق المرأة الجالسة قبالته. إن إدراكها له كان يتنامى تدريجياً اثناء هذه الوجبة الطويلة. لعلها تحاول قمع رغبتها، لكنها غير قادرة على إخفائها عنه. أخذت نظراتها المستورة تلسعه شيئاً فشيئاً. إنه يتوق إليها بشدة، وهو يريدها أن تتوق إليه أكثر فأكثر. أحس فيتو بكيانه يتجاوب مع مجرد تفكيره بما هو منتظر... قريباً جداً سوف يأخذها إلى سريره. مدّ يده وتناول قطعة من الحلوى لكي يلهي نفسه. إن الوجبة تقترب من نهايتها، وهو مسرور بذلك. لأن الليل بالنسبة إليه ما زال فقط في بدايته.

٧ ــ لست غبياً

ألقت رايتشل يديها على سياج الشرفة، وحدقت إلى البعيد نحو الليل الكاريبي الدافئ.

استطاعت أن تسمع الأنين الخفيف لنسيم البحر يتلاعب برؤوس أشجار النخيل، كما سمعت الحفيف الخافت لأمواج البحر تتكسر بلطف على الشاطئ. فكرت رايتشل أنه ليل للعشاق، لكنه ليس لها. تغلب عليها شعور بالغربة، كما لو أنها منفية.

تسارع الأحداث جعلها تشعر بالابتعاد عن الواقع المحيط بها. حاولت رايتشل أن تفكر بوالدتها. حاولت أن تحلّل ما يكون عليه الوقت في لندن الآن. حاولت أن تفكر بما قد يقوله الأطباء لها الآن، ربما آن الأوان لأن تفكر بتأمين دار مخصصة للعناية بالمرضى أمثال والدتها... لكن والدتها بدت بعيدة جداً. فقط هذا المكان الساحر بدا الآن واقعياً جداً.

مع ذلك، هي لا تشكل جزءاً من هذا المحيط الرومنسي الجميل. لا يمكنها أن تكون كذلك أبداً، فالرجل الوحيد الذي تتوق إليه والذي تاقت إليه على الدوام يتخطى منالها. أما وجوده هنا الآن على بعد بضعة أمتار عنها، فجعل عذابها استثنائياً أكثر، وجعل توقها إليه أكثر إيلاماً.

يجدر بي أن آوي إلى السرير. يجب أن أخلد إلى النوم، وأصلي كي لا تراودني أي أحلام... حسناً! سوف تذهب بعد لحظة... لحظة فقط.

سمعت خلفها وقع قدمين تتنقلان بهدوء، وشعرت بوجود شخص

ما. إنه شخص يمكنها التعرف عليه حتى لو كانت معصوبة العينين.

استدارت رايتشل، لأنها لم تقوَ على منع نفسها من ذلك.

رأته هناك. جميل ووسيم جداً تماماً كأول مرة ألقت نظرها عليه. وقفت مستندة إلى السياج، وجلّ ما استطاعت أن تسمعه هو نبضات قلبها.

تحرك فيتو باتجاهها، فأحسّت بالأنفاس تعلق في جلقها. اتسعت عيناها بدهشة. إنه يتجه نحوها!

بدا من خطواته أنه يهدف إلى شيء ما. لم تقوَ رايتشل على الحراك. لم تتحرك فيها عضلة واحدة. تباطأت نبضات قلبها وهي تنظر إلى فيتو المتوجه نحوها.

حدقت به ملياً، إذ لم تقوَ على منع نفسها عن ذلك. تشرّبته عيناها... كم هو وسيم! لماذا هو قادم نحوها؟ ما الذي يريده؟

ابتسم فيتو ابتسامة ساخرة عالمة. نزلت أهداب عينيه الطويلة السوداء إلى الأسفل، فأخذت تلسع بشرتها. علمت رايتشل أنه سوف يعانقها الآن... سوف يخفض رأسه نحو رأسها وسوف يحتضنها بذراعيه و...

اجتاحت العواطف الجياشة كيانها تماماً. همست باسمه: «فيتو...!».

بدت عيناه ملتمستين متضرعتين، ثم مدّ يده نحوها.

جلّ ما فعله هو وضع سبابته على قلادة الزمرد التي تستقر فوق صدرها.

- آن الأوان لأن تعطيني الزمردات، عزيزتي.

امتدت يده الأخرى إلى جيب سترته، فسحب وثيقة الزواج المثنية، وأردف قائلاً: «أعطيني أنت الزمردات، فأعطيك هذه».

بدت عيناه غامضتين في الليل، فتلاعبتا فوق وجه رايتشل...

- هذا هو سبب مجيئنا إلى هنا، أليس كذلك؟ حتى نقوم بهذه

المقايضة... ليس هنالك سبب آخر. أليس كذلك يا عزيزتي؟

سخرت الابتسامة المزروعة على فمه بألمها وبتوقها.

قال لها فيتو بلطف: «أعطيني العقد».

وسقطت يده بعيداً عنها.

أحست رايتشل بيديها تتحركان بحذر، كما لو أنهما ليستا جزءاً من جسدها، فامتدتا حتى قفا عنقها. انفتح المشبك تحت أناملها، وأحست بالعقد الثقيل يكاد ينزلق منها، فالتقطته وحملته بين يديها، ثم مدتهما نحوه.

تناول فيتو الزمردات من يدها، ووضعها داخل جيب سترته. ومن دون أن يحيد عينيه عن وجهها، لف وثيقة الزواج وأزلقها داخل صدرية فستانها.

تكلم بصوت هادئ منخفض قائلاً: «لقد نلت ما جئت من أجله يا عزيزتي، لأن هذا هو ما جئت إلى هنا من أجله... لا شيء آخر».

ظلت عيناه مركزتين على عيني رايتشل للحظة طويلة لامتناهية، ثم تابع مكرّراً بنعومة: «لا شيء آخر».

بعدئذٍ مرر فيتو إصبعه تحت ذقنها ورفعه إلى الأعلى، ثم أحنى رأسه نحوها، مرر أنامله خلف عنقها، وقبض على مؤخرة رأسها. لم تقوَ رايتشل على الحراك، لم تقوَ على التنفس لم تقوَ إلاّ على الوقوف مكانها، فيما عانقها فيتو ليحملها إلى لحظات من النعيم الاستثنائي.

بدا لرايتشل كما لو أن عناقه سيدوم إلى الأبد... إلا أنه لم يدم إلا للحظة وجيزة جداً. ما إن انسحب فيتو مبتعداً عنها حتى أطلقت أنيناً. أخفض فيتو بصره نحوها، وسألها بصوت ناعم خافت: «هل تريدين هذا؟».

مدت رايتشل يدها لتلامس وجهه بأناملها، راسمة حدود فكه وذقنه. تنفست قائلة: «أجل».

ابتسم ابتسامة شيطانية، وقال: «إذاً سوف تحصلين على مرادك، يا

عزيزتي».

قادها فيتو نحو سريره، فرافقته رايتشل كالمسحورة. تمهل عند عتبة غرفة نومه، ثم رفعها بين ذراعيه في حركة سريعة، وحملها إلى الداخل. شهقت رايتشل عندما أنزلها ووضعها فوق السرير.

قال لها بنعومة: «أهلاً بك في جناح شهر العسل يا عزيزتي».

شعرت رايتشل لوهلة، للحظة وجيزة سريعة بإحساس من الخشية والرهبة يغمرها. إنها ليس عروساً حقيقية، ولا يحق لها بأن تكون هنا.

في تلك اللحظة شعرت رايتشل بالضياع تماماً. لم تقوَ على الحراك، لم تقوَ على القيام بأي شيء. سوى الاستلقاء هناك متغافلة عديمة الحيلة. لم يبعد فيتو عينيه عنها ولو لحظة واحدة. بعدئذٍ اقترب منها وجلس على حافة السرير، ثم مد يده إلى رباط فستانها وأزلقه عن كتفها، ثم كرّر الحركة مع الرباط الآخر ببطء متعمد. حدقت رايتشل إليه ببساطة للحظة طويلة لا متناهية، ثم غمغمت بأنفاسها وزفرت باسمه...

- فيتو... أرجوك...!

أخفض فيتو رأسه نحوها ببطء شديد. وحين فعل ذلك سقطت الورقة المثنية على شكل لفافة، فوقعت على الأرض من دون أن يلاحظاها، كما لو أنها أصبحت من غير أهمية.

- فيتو...!

خرج اسمه من شفتي رايتشل مصحوباً بتنهيدة ملؤها الشوق، فيتو فارنيستي أصبح في متناول يدها!

شدته رايتشل نحوها كما لو أنها تستعيد ما هو ملك لها. أما أحلى ما في هذه النعمة التي تتملكها، فهي معرفتها أنها استرجعت فيتو مجدداً. إنه فيتو نفسه الذي تعرفت إليه تلك الليلة... تلك الليلة الثمينة الرائعة السحرية التي اصطحبها فيها فيتو من ذلك الحفل ليجعلها تشعر أنها امرأة مميزة.

تماماً كما فعلت من قبل؛ منحته رايتشل اهتمامها وحنانها مجدداً، وهذه المرة منحته كيانها بأكمله. عانقته، وأعطته كل ما يمكنها أن تعطيه.

أما لمسات فيتو فكانت عسلاً وناراً ولهيباً يومض ويتلاعب فوق بشرتها. اشتعل اللهيب في عروقها، وفي كل كيانها.

- فيتو...!

نطقت رايتشل باسمه بزفير وتوسل.

رمقها بنظراته للحظات طويلة أبدية، فاستطاعت رايتشل أن تلحظ ظلال الشغف الغامضة في عينيه. الشغف... الشغف لها وحدها...

بدا لها كأنما الوقت قد تجمد في مكانه، وكأنما الكون يتوقف عن الدوران، وكأن كل ما هو موجود وكل ما يمكن أن يوجد قد توقف.

أخيراً طافت بركة النار المشتعلة في جسدها... وطافت هي في عالم من الحماس الحلو اللذيذ.

نظر فيتو نحوها، لم تقوَ رايتشل على الكلام أو الحراك للحظة أبدية لا متناهية، إذ لم يكن بمقدورها إلاّ أن تحدق، وتحدق وتحدق...

فيتو... فيتو... أقام علاقة حميمة معها. جعلها زوجته حقاً، وجعل زواجهما حقيقياً. سوف تصبح الأمور على ما يرام. إنها تعرف ذلك بثقة عميقة ثابتة حتمية. لم تفهم رايتشل كيف عرفت ذلك، لكن حقيقة وقوة ما حصل للتو لا يمكن نكرانها. ولّى الزمن الماضي المسموم الآن. احترق في لهيب الشغف الذي تشاركاه.

أخفض فيتو رأسه بحركة بطيئة مرتاحة، فلامست شفتاه جبينها.

ابتسم لها وهو يرفع رأسه عنها. عندما تكلم في تلك اللحظة، أحست رايتشل أن الأنفاس تعلق في حلقها. جاء صوته خافتاً وساخراً حين قال: «يجدر بك أن تعلميني يا عزيزتي عندما ترغبين بمواهبي الخارقة في السرير مجدداً. إذا وعدتني بأن تتجاوبي معي على هذا الشكل مجدداً، فسوف تحصلين عليها ساعة تشائين».

فجأة أحست رايتشل بالدماء تجف في عروقها، ليحل مكانها رعب جليدي مخدر.

ابتعد فيتو عنها، ثم مرر أحد أنامله الطويلة على طول خدها.

- حصلت الآن على ما رغبت في الحصول عليه حين كنت في الثامنة عشرة من عمرك. يجدر بك أن توجهي تحياتي لعشيقك الذي أردت أن تغيظيه بزواجك مني، إذ أتاح لي التمتع بهذه العلاقة الرائعة حتى بعد هذه السنوات الطويلة.

سمعته رايتشل وهو يتكلم، لكنها لم تقوَ على قول أي شيء. لم يكن بمقدورها إلاّ أن تبقى مستلقية هناك وهي مخدرة من الرعب.

تحرك فيتو فالتمع جسده تحت النور الخافت. حدقت رايتشل به للحظة واحدة مصعوقة بالرعب.

إنه جسد ملاك، لكنه يتمتع بروح شيطان!

نهض فيتو على قدميه، ونظر نزولاً نحوها.

- أنا بحاجة إلى أخذ حمام. هل تريدين الانضمام إلي؟ سيبدو الأمر... منعشاً... جداً...

مد يده نحوها كما لو أنه يريد ملامستها، لكن رايتشل ركضت. ركضت كما لو أن كل شياطين الجحيم تلاحقها... أم بالأحرى مجرد شيطان واحد. تعثرت وهي تنهض واقفة على قدميها، لكنها ركضت بكل ما أوتيت من قوة، لكي تبحث عن الملاذ في غرفتها الخاصة في الجهة الأخرى من الشرفة.

ارتمت على السرير بصرخة مصعوقة مكسورة، فطمرت نفسها عميقاً داخل الأغطية كما لو أنها قبرها. استلقت رايتشل على جنبها وجذبت رجليها إلى الأعلى، لتتخذ وضعية الجنين الدفاعية، كما ضمت رأسها وذراعيها إلى الداخل، فغدا جسمها محدباً على شكل قوس. لم تقدر حتى على البكاء.

* * *

حدّق فيتو نزولاً نحو السرير الفارغ. فأحس بفراغ هائل في أعماقه، ولم يعرف ما سبب ذلك. ما خطبه؟ ها قد قام بما أراد القيام به منذ البداية. أخذ رايتشل فايل إلى السرير كما أراد أن يفعل دوماً، في بالغ الأمر، هذا هو الهدف التام من هذه المهزلة. أراد أن يمسح عن وجهها ذاك المقت الكاذب الساخر المزدري تجاهه!

حسناً... ! برهن لها أن تلك كذبة. حسناً! يا إلهي! التهبت رايتشل مشتعلة بين ذراعيه كأنها خلقت لأجله، كما ذاب هو بين ذراعيها أيضاً...

زمّ فيتو فمه بغضب. حسناً! لِمَ تُراه لا يتأثر بها؟ فرايتشل فايل قادرة على التأثير في أي رجل.

منذ أن وقع عليها نظره للمرة الثانية... أومضت الذكرى في ذهنه...

كانت واقفة هناك، وقد بدت ضائعة جداً بين حشود الناس. بدا شعرها أشبه بوشاح من اللون الذهبي الباهت. ما إن دنا منها فيتو منجذباً إليها بشكل فطري حتى أدرك أنها يافعة وشابة.

وفي اللحظة التي توقف فيها أمامها لأول مرة وابتسم لها، أدرك أنها ما تزال بريئة لم تلمسها يد رجل. وأدرك أنه يرغب بشدة أن يلمسها هو نفسه. صرف فيتو تلك الذكرى، فأبعدها عن ذهنه. ما الجدوى بحق الجحيم من تذكر رايتشل؟ حينها أو الآن.

دفع أغطية السرير إلى الوراء بحركة تدل على نفاد الصبر، وعلى الفور أحس بغيابها. طعنه ذاك الشعور كالسكين.

إنه يريدها مجدداً. يريدها بين ذراعيه تماماً، فهو لم يكتفِ منها بعد. لكنه لن يبحث عنها الآن. سوف يتركها مستلقية في الغرفة المجاورة، لكي تواجه بنفسها حقيقة أنها مهما حاولت أن تنكر الأمر، مهما قالت له إنها محصنة تجاهه، مهما حاولت أن تقول له إنها أرادت فقط أن تضع خاتمه في إصبعها كي تعرضه متباهية أمام عشيقها الذي

نبذها، فرايتشل فايل هي له، وسوف تكون كذلك دوماً!

استلقى فيتو على السرير يحدق بعقدة الموسلين الأبيض المدلّى فوق رأسه، وما لبث أن شعر بالانزعاج لأنها ذكرته بأن هذا الجناح يفترض به أن يكون جناح شهر العسل.

أحس أن جسده متململ لا يعرف الراحة أو الهدوء. بدا ذهنه مشوشاً، هائجاً، منزعجاً. حقيقة كونه في حالة مماثلة هو أمر مزعج بحد ذاته. ليس هنالك من سبب يبرر هذا. لقد حصل بالضبط على ما أراده. حصل على كل ما لدى رايتشل لتقدمه له.

لكن فيتو تعلم منذ سبع سنوات أن هذا كل ما يُحتمل أن يريده منها على الإطلاق. أما البقية فهي مجرد وهم... وهم فارغ.

ظل مستلقياً في السرير وعيناه القاسيتان تحدقان إلى الظلام.

* * *

مدّت رايتشل يدها لتتناول فرشاة أسنانها، فأدركت أن يدها ترتجف. حاولت أن تثبتها، لكنها لم تستقر. التقطت أنبوب معجون الأسنان، ووضعته فوق فرشاة الأسنان، أحرق فمها طعم النعناع الحاد الحار، فتمنّت لو أن بمقدور ذاك الطعم الحار أن يحرق ذكرى ليلة أمس أيضاً.

لا تفكري! لا تفكري! مهما كان ما فعلته، لا تفكري!

كرّرت رايتشل الكلمات كما لو أنها مانترا في ذهنها، فيما فركت أسنانها بجموح مرتعش.

كنت أعرفه. كنت أعرف ما هو عليه. علمت ذلك طيلة سبع سنوات مريرة. لا عذر لي... لا عذر لي على الإطلاق... أبداً!

كيف توهمت أنه تغير عما عرفته عليه؟

في الواقع، أرادته أن يكون الرجل الذي اعتقدت منذ زمن بعيد أنه عليه، لكنه ليس ذاك الرجل أبداً. إنه مجرد وهم. وهم فظ فارغ.

ليلة أمس، استحضر فيتو ذاك الوهم مجدداً، ومرة ثانية تمكن من

خداعها به، كما خطط لأن يفعل في المرة الأولى. لكنها هذه المرة لا تستطيع التذرع بصغر سنها وقلة خبرتها أو بجهلها لطبيعته الحقيقية.

حدقت رايتشل إلى انعكاس صورتها في المرآة من دون تسامح.

أنت تستحقين ما حصلتِ عليه! تستحقين كل شيء...

طاف الشعور بالمقت داخل جسدها. ليس فقط تجاه فيتو بل تجاه نفسها أيضاً بسبب حماقتها.

بدأت رايتشل توضب أدوات تبرجها بسرعة لكن من دون تفكير، ثم أدركت أنها لم تستحم بعد، فتركت حقيبة التزيين على المنضدة وتوجهت إلى الحمام.

فتحت صنبور المياه عمداً وكرهاً لنفسها على المياه الباردة. أرادت أن تعاقب جسدها لأنه خدعها بهذا الشكل، ولأنه خانها.

لا شيء أمكنه جعلها تشعر بالارتياح لعملها الأخرق. هناك فقط الفراغ والدمار والخراب.

نظرت إلى الخارج نحو الحدائق فيما مشت عائدة إلى غرفة نومها. لا بد أن الصباح ما زال مبكراً جداً، فالشمس بالكاد وصلت إلى ما فوق الأفق خلف المنزل. تساءلت رايتشل في أي وقت قد يبدأ أي من الموظفين بالتحرك، حتى تتمكن من أن تطلب وسيلة نقل ما تقلها عن الجزيرة وتعيدها إلى المطار.

ارتدت ملابسها بسرعة ورشاقة، استخدمت الملابس نفسها التي وصلت بها إلى هنا، ثم وضبت بقية ملابسها. فستان زفافها لم يكن هنا بين الملابس، لكنها لم تأبه لذلك. إذ لم ترغب بأن يقع نظرها عليه مجدداً، فهو ملوث. أغلقت رايتشل غطاء الحقيبة الصغيرة، فأحكمت إغلاقها، ثم تجمدت لإدراكها الشنيع.

إنها لا تحمل وثيقة الزواج الخاصة بها. فيتو كان قد وضعها في قبة فستانها عندما بدأ بعملية إغوائها ليل أمس. لا بد أنها سقطت عندما أدخلها إلى غرفته وخلع عنها فستانها. جاش الفزع عبر جسدها

بموجات مثيرة للغثيان.

لا يمكنني! لا يمكنني أن أعود إلى الداخل لإحضارها! لا يمكنني!

لكن هذه الوثيقة هي سبب مجيئها إلى هنا. إنها الهدف الوحيد من هذا الكابوس الدنيء. يجدر بها أن تدخل لإحضارها. لا خيار أمامها.

عبرت رايتشل نحو الأبواب بخطى متثاقلة ملؤها الخوف، فأدارت المفتاح في القفل، ثم فتحتهما بحذر وانتباه، وخطت خارجاً نحو الشرفة. اكتسحها برد الصباح الباكر، ومن دون قصد توجهت نظراتها إلى الخارج، وتجمّدت مكانها.

كان أحدهم في البركة يسبح بضربات طويلة متناسقة.

صعقها جيشان مفاجئ لانتهاز الفرصة المؤاتية، فأدارت رأسها نحو الجهة اليمنى. كان بابا جناح شهر العسل مفتوحين أمامها.

لا بد أن فيتو في بركة السباحة. لا بد أن يكون هو! اندفعت رايتشل على عجل داخل الغرفة من دون أن تجرؤ على التفكير، فانطلقت عيناها تنظران في أرجاء الغرفة بخوف. بدت الغرفة مهجورة: السرير الدائري الضخم فارغاً، والأغطية مرمية على الأرض.

ليس هنالك من وقت! هنالك وقت متوفر فقط لكي تجول مسرعة على الأرض في بحث يائس عن تلك الورقة الوحيدة المثنية.

يجدر بي أن أجدها! يجدر بي ذلك!

لم ترَ رايتشل أي شيء على الأرض، فاضطرت بعد تردد عميق لكن مدفوعة بالحاح يجدر بها أن تطيعه أن تفتش في السرير نفسه.

لا تفكري... فقط ابحثي!

كانت الوثيقة هناك! محشورة داخل أغطية السرير. مجعدة، لكن... تحسستها وفتحتها... إنها ما تزال سليمة، فهي مقروءة، واضحة وغير مشوهة. استقامت رايتشل في ركوعها، فتفحصت الصفحة سريعاً، واطمأنت إلى أنها ما تزال على ما يرام.

– ماذا يا عزيزتي؟ هل أبقيتك منتظرة، فجئتِ الآن بحثاً عني؟ هل أنت متشوقة للعودة معي إلى السرير؟

وقف فيتو هناك عند الأبواب المفتوحة مرتدياً فقط لباس السباحة. بدا جسده المبلل لامعاً، أما شعره فبدا حريرياً مبتلاً بالماء، فيما رمى المنشفة فوق إحدى كتفيه. إلاّ أن رايتشل استطاعت أن تلاحظ ظلالاً تظلم بشرته. أحست أن أعماقها أصبحت خاوية، إذ اخترقها الرعب لأن فيتو اعترضها قبل أن تتمكن من الهرب.

وضعت إحدى رجليها على الأرض ووقفت تواجهه، بينما ثنت الوثيقة بسرعة. أحست كما لو أن قنبلة ما انفجرت في أحشائها، لكنها علمت أنه لا يجدر بها أن تظهر ذلك لفيتو على الإطلاق. بدا وجه رايتشل مشدوداً، أما صوتها فبدا متصلباً، وبالكاد استطاعت السيطرة عليه حين رفعت وثيقة الزواج، وقالت له: «هذا ما جئت من أجله، فيتو».

تمشى فيتو داخل الغرفة. بدا مسترخياً، لكن رايتشل استطاعت أن ترى أن التوتر يعذبه ويشد جسده.

جرجرت نظراتها بعيداً عنه، لكنها لم تجد مكاناً آمناً تنظر إليه. لا مكان...

اقترب فيتو من السرير، وتكلم مجدداً.

– أتقصدين أن مواهبي في السرير ليست بمستوى مقاييسك المتطلبة؟ بدوتِ سعيدة ليل أمس.

استقرت عيناه السوداوان على وجهها. فأحست رايتشل بالأنفاس تتجمد في رئتيها، أما قلبها فتباطأت نبضاته حتى كادت تتوقف.

تكلم فيتو بنعومة، فاكتسحها موجة من الغثيان عندما قال: «أحببتِ الأمر ليلة أمس!».

مشى متجهاً نحوها فيما لم تفارقها عيناه. كرر قائلاً: «ألم أسمعك تتوسلين إلي؟ أم أنني مخطئ؟».

قذف المنشفة جانباً واقترب منها أكثر، بينما بدت لها كل خطوة ذات مغزى، أما عيناه فاتقدتا بلمعان جعل معدة رايتشل تنقبض. تابع يقول: «سوف تحبين الأمر مجدداً...».

أخيراً توقف أمامها ومد يده ليطالها، إلا أن رايتشل هزت نفسها وتراجعت إلى الوراء.

تكلمت بصوت هامس، بدا كالزفير الخشن من رئتيها وهي تقول: «أيها اللعين. أيها اللعين، اللئيم المقرف! كيف تجرؤ على أن تقول لي أشياء كهذه؟ كيف تجرؤ؟».

التهب شيء ما في عيني فيتو، أما فمه فبدا لاذعاً كالسوط وهو يقول: «هذا العرض بالشعور بالإهانة لم ينطلِ علي منذ سبع سنوات يا عزيزتي، وهو لن ينطلي الآن! لذا وفري عليّ التأريخ هذه المرة. فليس هنالك من داع له. هذه المرة لديك خاتمي في اصبعك. الخاتم الذي أردته منذ أن خططت للأمر مع والدتك الغالية طيلة هذه السنوات الماضية حين قدمتك لي كطعم لتلتقطني به! أنت مستعدة للقيام بأي شيء لكي تحصلي لنفسك على زوج ثري!».

جفّت الدماء من وجه رايتشل.

– ماذا...؟ ما الذي تعنيه بقولك إنها... قدمتني كطعم...؟

ضاقت عينا فيتو بمقت.

– هل ظننت أنني غبي؟ أنت نصبتِ لي فخاً. أليس كذلك؟ كنت في الثامنة عشرة من عمرك فقط، ومع أن رجلاً لم يمسك من قبل، لكنك كنت فاسدة ومتواطئة تماماً كوالدتك. والدتك التي أرادت حمايتك والحرص عليك، والتي صادف وصولها برفقة والدي مساء ذلك اليوم لتجد ابنتها العزيزة ضحية لإغوائي. يومها اعتقدت والدتك -وأنتِ أيضاً- أن والدي سوف يجبرني على الزواج بك بسبب سوء تصرفي. الزواج من أحد أفراد آل فارنيستي! إنه الشيء الذي لم تتمكن الوالدة من تحقيقه، سوف تحققه لها الابنة...

أحست رايتشل أنها توشك على الاغماء، إذ راح الخدر يلتف حولها كما لو أنه ضباب كثيف.

- أما الآن فأنت حققتِ مرادكِ. أليس كذلك؟ حققتِ هدفك، فحصلتِ لنفسك على زوج من آل فارنيستي! لعل جمالك وسحرك لم يشكلا إغراء كافياً، لكن زمردات آل فارنيستي حققت الهدف. أليس كذلك؟ لا عجب أن والدتك قررت أن تضحي بها لأجل هدف نبيل كهذا، زواج ابنتها مني. هذه المرة ظننتِ أنك تشتريني. أليس كذلك؟ جمالك لم ينجح في إيقاعي بالأسر منذ سبع سنوات، لذا سحبته من القائمة هذه المرة. أنت لم تنوِ السماح لي حتى بالحصول على حقوقي الزوجية. أليس كذلك؟ أردت أن يكون ذاك النكران الرخيص الحقود انتقامك مني. أليس كذلك؟ انتقامك لأنني رفضت الزواج منك في الماضي أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ظهر لهيب قوي في عيني فيتو... لهيب مظلم حارق...

- خططت لأن تتمنعي فتحرميني من إقامة علاقة حميمة معك. أردت أن تغويني بجسدك الجميل هذا، ثم تخدعيني كي لا أحصل عليه! حسناً، يا عزيزتي! أسأت الحساب بذهنك الطموح الصغير هذا. أسأتِ تقدير رغباتك وأهوائك الخاصة. أنت تتوقين إلي. في كل مرة ألمسك فيها أنت تشتعلين باللهب شوقاً للحصول علي، لذا لا تكذبي علي. لا تحاولي أن تقولي لي إنك لا تريدينني. ما الذي تطلبه مني الأمر ليلة أمس حتى أدخلك إلى سريري؟ لمسة واحدة، عناقاً واحداً... وها قد أعجبك الأمر. كنت تتوقين إلي ليلة أمس وأنت تتوقين إلي الآن!

نقل فيتو وزن جسده إلى رجله الأخرى.

- أنا ذاهب الآن لأخذ حمام، بعدئذٍ سنتناول الفطور. لا تقومي حتى بمحاولة الهروب، لأنني كما أخبرتك ليلة أمس لا أرغب بأن توجه لي أي اتهامات بأنني وافقت على زواج مزيف. سوف نمضي

شهر عسلنا هنا، يا عزيزتي... شهر عسلنا الرومنسي المبهج. يمكنك أنت يا عروسي الجميلة أن تحصلي على كل ما ترغبينه مني، أما أنا فسوف أستمتع بالشيء الوحيد الذي أعرف أنك تجيدينه!

استدار فيتو ومشى إلى داخل الحمام المتصل بغرفة النوم، ثم أغلق الباب خلفه بخبطة مكتومة.

ترنحت رايتشل، وقد أصبحت رجلاها مرتخيتين كالقطن.

كيف عساه استطاع أن يقلب الحقيقة رأساً على عقب بهذا الشكل؟ كيف يمكنه تشويه حقيقة ما حصل منذ سبع سنوات، بحيث صار هو الشخص الذي تم التلاعب به؟ أيدعي أنه هو الشخص الذي تعرض للأذى، وأنه ضحية مخطط يهدف إلى إيقاعه في أسر الزواج؟

أحست رايتشل وكأنما لكمها فيتو بالكلمات التي رماها بها. إنه يقلب حقيقة إغوائه لها رأساً على عقب متعمداً وعن سابق معرفة وسابق تصور وتصميم وبغير شعور بالندم أو بتأنيب الضمير، ليجعل منها هي الفاسدة الشريرة المتلاعبة المخططة في هذه الرواية.

بالكاد تحركت شفتا رايتشل وهي تهمس قائلة: «أيها اللعين... أيها اللعين الوغد! أتحاول أن تضع اللوم عليّ أنا؟».

بدأ الغضب والسخط يلتفان داخلها، ويملآن رئتيها، بحيث أصبحت غير قادرة على التنفس، وغشي بصرها. أغمضت رايتشل عينيها، وأحست بالحنق والسخط يرتعدان في جسدها. أحست بالألم الباهت النابض في صدرها، ذلك الألم الذي كان هناك منذ أن استيقظت من نومها المعذب. إنه ألمها لمعرفتها بأن فيتو فارنيستي لم يأبه مطلقاً لمشاعرها وأحاسيسها، وأن كل ما هدف إليه هو أن يجرح المرأة التي يكرهها. كذب عليها عندما همس لها كلمات لطيفة حلوة بلا قيمة، كذب عندما ضحك معها، كذب عندما احتضنها بين ذارعيه وعانقها. والآن ها هو قد خدعها.

العذاب الأليم الذي اعتصر قلبها هو أسوأ من أي ألم جسدي

يمكن أن تشعر به يوماً. فتحت رايتشل عينيها بعد أن نظرت من خلال عدسات أرجعت لها الزمن سبع سنوات...

فكرت أنها لم تتخلص أبداً من العذاب. أبداً... إنه ما يزال موجوداً في أعماق أعماقها، يفسد عليها حياتها ويسممها...

تساءلت، ما الذي كنت أفكر به؟ هل ظننت حقاً أن فيتو سيشعر يوماً ما بالسوء بسبب نواياه القديمة تجاهي؟ هل ظننت أنه سيشعر بالسوء تجاه ما أراد فعله بفتاة في الثامنة عشرة من عمرها لا تعرف شيئاً عن هذا الفتى اللاتيني، زير النساء المتميز؟ فتاة ساذجة جداً لاعتقادها أنها وجدت قصة غرام رومنسية شبيهة بقصص الجنيات ستتذكرها طيلة حياتها؟ زمت رايتشل فمها على شكل تكشيرة ملتوية. آه. لا! فيتو لم يشعر أبداً بالسوء حيالي أنا ولو للحظة أو لوهلة! لِمَ تراه يفعل ذلك؟ إنه بكل بساطة حرّف الحقيقة بشكل يناسبه، فجعلها هي الملامة!

غشى الغضب الساخط مجدداً عيني رايتشل. بحركة سريعة مفاجئة اندفعت إلى الأمام، فيما راح الأدرينالين يضخ بقوة في دمائها. الغضب والسخط والحنق والإكراه الحارق، كلها مشاعر جعلتها تقرر بأنها لن تسمح لفيتو فارنيستي أن ينجو بما تجرأ أن يقذفه على رأسها!

مشت مسرعة عبر الغرفة، فجذبت باب الحمام وفتحته بقوة.

كانت غمامة الحنق والسخط الحمراء ما تزال أمامها. إنه سخط يمتد في جذوره إلى سبع سنوات مضت. كان فيتو يستعد لأن يحلق ذقنه. الشفرة ما تزال على المنضدة، فيما مدّ يده إلى الأمام ليتناول عبوة معجون الحلاقة. بدت عضلات ظهره وكتفيه العريضتين واضحة بتفاصيلها الدقيقة. مظهره هذا جعل الأنفاس تعلق في صدرها. حدّقت رايتشل للحظة فقط، ثم أدركت أن فيتو توقف عما أوشك أن يقوم به، فأخفض يده ببطء، ولاقت عيناه عينيها في المرآة.

إلاّ أن شيئاً ما بدا مفقوداً منهما... إنه ذلك الشيء الذي تلازم مع نظرات عينيه منذ أن فاجأتهما والدتها ووالده في تلك الشقة في روما،

يوم قال لوالدتها إن ابنتها الغالية تتوسل إليه كي يقيم علاقة معها... لم يكن ذاك الشيء موجوداً هنا الآن، عندما لاقت عيناها عينيه في المرآة.

فجأة أدركت رايتشل بشكل مدمر أن آخر مرة حدقت بها بعيني فيتو فارنيستي على هذا الشكل، كانت عندما احتضنها بين ذراعيه في روما وأخذ يبتسم لها، ويداعب شعرها، وهي تحدق نحوه مفتونة به.

- يا فتاتي الحلوة... يا فتاتي الحلوة... يا فتاتي الحلوة...

سمعت رايتشل الكلمات، سمعتها عبر سبع سنوات طويلة... سمعت غمغمة هذه الكلمات الرقيقة ذات اللهجة والإيقاع اللطيفين... لطالما استعادت ذكرى ذلك العناق الذي أغرقها فيه فيتو، مداعباً بأنامله جبينها وجفنيها وخديها... شعرت أنها في الجنة حينها...

والآن، للحظة بدا لها كأن تلك اللحظة تكررت مجدداً، فعيناها تمسكان بعينيه، تنشدان نحوه، تمسكان به.

للحظة بدا لرايتشل كما لو أن شيئاً ما انحلّ في داخلها. كما لو أن عقدة قاسية بشعة تفككت. كما لو أن يرقاناً ما خبيثاً مؤذياً وعدوانياً كان يلازمها لفترة طويلة جداً إلى درجة أنه صار جزءاً منها قد اختفى. إنه شيء لم تتحرر منه أبداً. عقدة سيطرت على حياتها بأكملها... في تلك اللحظة... ولأول مرة خلال هذه السنوات الطويلة أحست أن تلك العقدة بدأت تتلاشى...

استدار فيتو ليواجهها، فاختفت تلك اللحظة واستقرت عيناه عليها مجدداً، لكنهما هذه المرة التمعتا بنظرات خبيثة مضمرة للسوء.

عينان جميلتان مميتتان، تماماً كحاله هو... الشيطان الذي هبط من السماء. ذلك ما هو عليه فيتو، بغض النظر عن الكلمات اللطيفة التي غمغمها لها في ما مضى.

الآن هي تراه على حقيقته. لطالما كانت هذه الحقيقة موجودة أمامها، لكنها كانت عمياء جداً غير قادرة على رؤيتها.

- هل جئتِ لتشاركيني الاستحمام؟ حسناً! سوف تضطرين لأن تنتظري بضع دقائق ريثما أنتهي من الحلاقة. آه! أخبريني إن كنت تفضلين القيام بذلك من دون أن أحلق ذقني. أليس هذا ما تحبه النساء الإنكليزيات؟ آه! هل هذا ما تحبينه يا عزيزتي؟ يجدر بك أن تخبريني... فأنا لا أود أن أخيب آمالك وتوقعاتك.

ذاك الالتماع في عيني فيتو جعل رايتشل تشعر بالغثيان. بالرغم من ذلك، أحست بالارتعاش عندما اتكأ إلى الوراء مستنداً إلى حافة الحوض متناسياً شفرة الحلاقة.

بدأ ذاك الضعف المخادع الخائن يطوف في عروق رايتشل. إنه توق مريع هزّها بقوته الشديدة. قوة جعلتها ترغب بالاقتراب من الرجل الواقف هناك بغض النظر عما فعله وما قاله لها.

أجبرت نفسها على أن تجرجر عينيها إلى الأعلى، كما لو أنها استحمت بالمياه الباردة المثلجة. أجبرت نفسها على التركيز فقط على التعابير الموجودة في خط فمه المنحوت أو في مسطحات وجهه. أجبرت نفسها على رؤية ذاك اللمعان الغامض الخفي...

عندما تكلم فيتو مجدداً بدا كأنه يكشط أعصابها كالأظافر التي تحفر على لوح خشبي.

- حسناً! ما الذي تريدينه عزيزتي في صباح هذا اليوم؟ هل نقوم بجلسة حيوية ترفع المعنويات الآن؟ أم تودين الانتظار حتى أنتهي من الاستحمام؟

بدت عينا فيتو كالخناجر التي تطعنها بقوة تجعل الدماء تنزف منها بغزارة. جرحت الأنفاس حلق رايتشل وهي تتكلم، فجاء صوتها وفيعاً حاداً كشفرة السكين: «سوف أذهب الآن... سأعود إلى إنكلترا. لست آبه البتة إن كان ذلك سيجعل زواجنا غير قانوني أم لا، لأنني حصلت من هذا كله على ما أردته: وثيقة الزواج هذه. لكنني لن أغادر هذا المكان قبل أن أخبرك شيئاً ما. أنت قلبت حقيقة ما حدث في روما

منذ سبع سنوات. لويت الحقيقة فوق كل حد متعارف عليه. لكن الأمر لم يتم كما وصفته أنت، وأنت تعرف هذا. أنت تعرف أنني لم أخطط لأي شيء مطلقاً. لا شيء... لا شيء مما قذفتني به!».

زال الالتماع من عيني فيتو. تماماً كما زالت مظاهر التسلية الكسولة التي ظهرت عليه منذ لحظات. بالطبع فهو لم يكن يعني أو يشعر بأي كلمة مما اقترحه للتو! قال ما قاله فقط لكي يخزيكِ... لكي يذلّك. تماماً كما أقام علاقة حميمة معك ليلة أمس حتى يخزيكِ، ويذلّك... ولكي يسخر منك بسب ضعفك المثير للشفقة تجاهه...

أجبرت رايتشل نفسها على إبعاد تلك المعرفة المخزية المذلة عن ذهنها. لم يعد الأمر هاماً الآن، فهي سوف ترحل. سوف تخرج من هنا، ولن ترى فيتو فارنيستي بعد اليوم مطلقاً لكنها قبل أن ترحل سوف تقذفه بكل ذرة من ازدرائها ومقتها... وغضبها... بسبب ما فعله بها عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها!

استنشقت رايتشل نفساً آخر جارفاً حتى تتكلم مجدداً، لكن فيتو سبقها فقذف كلماته بقوة نحوها، فيما أومض الغضب السوداوي في عينيه، إذ قال: «ألم تخططي أبداً لأي شيء؟ أتجرؤين على الوقوف هنا لتقولي لي إنك لم تخططي للأمر بأسره؟ كذبت علي منذ البداية. أنت عرفت من أنا... بحق الله! عرّفوك بي في تلك الحفلة بالاسم، ولم يرمش لك جفن حتى. لكنك أخفيتِ هويتك الحقيقية عني بحذر شديد. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ لم تذكري لي مطلقاً أنك تعرفين من أكون. كذبتِ علي متخذة اسماً مستعاراً. رايتشل فايل."

حدّقت رايتشل به مذهولة.

- ذاك... ذاك هو اسمي. لطالما كان كذلك.

ضاق فم فيتو.

- أنت ابنة غير شرعية، واسم عائلتك هو اسم عائلة والدتك نفسه. اسم عائلة والدتك غير المتزوجة!

واجهته رايتشل بصلابة قائلة: «منحتني أمي اسم عائلة والدي. ذلك جل ما استطاعت أن تفعله. لم تكن قادرة على تدوين اسمه على وثيقة ولادتي، لأنه ما كان ليوافق على ذلك. سخر منها وثار في وجهها عندما أخبرته أنها حامل بي. هو لم يعطها شيئاً... لا خاتماً ولا مالاً لتتدبر أمرها به. لم يمنحها أي تعويض... لا شيء. منحتني أمي اسمه لأن هذا كل ما يمكنني أن أحصل عليه منه. إنه مدون على وثيقة زواجنا في حال أنك لم تلاحظ ذلك».

دفع فيتو تفسيرها جانباً من دون أن يأخذه بعين الاعتبار.

- لكنك بالرغم من ذلك لم تفكري بأن تذكري لي من هي والدتك. أليس كذلك؟ خلال أسبوعين كاملين... في حين أننا أمضينا كل يوم... كل يوم سوياً. لم تفكري ولو لمرة واحدة أن تذكري لي من هي والدتك. والدتك التي دبرت معها بحذر أن تظهر بشكل مناسب في شقة روما ذلك المساء، لكي تقبض على ابنتها الحبيبة مع ابن حاميها! على أمل أن يفرقع والدي بسوطه ويجعلني أتزوجك بالقوة!

اكتسحتها اتهاماته الباردة، بينما أدانتها عيناه القاسيتان.

أرادت رايتشل أن تنفجر غضباً منه، وأن تصرخ عالياً بغضبها الساخط. سمعت صوتها يرتفع...

- لم يكن الأمر هكذا! بل كنت أنت... أنت من يتلاعب بي. أنت عرفت من أنا طيلة الوقت. أنت أغويتني متعمداً، فقط لكي تنتقم من والدتي. رميتني بالكلمات اللئيمة نفسها حينها... تماماً كما فعلت الآن. كرهتك حينها وأنا أكرهك الآن، وليكن الله بعوني. سوف أكرهك حتى آخر يوم في عمري بسبب ما فعلته بي.

اسودت عينا فيتو كليل مظلم قاتم.

- أخبريني شيئاً!

بدا صوته عادياً كما لو أنه يجري محادثة عادية، ما جعل الشعيرات على ظهر رايتشل تقف.

- لو أنك كرهتِ ما قلته لك منذ سبع سنوات، لماذا بدوت متشوقة جداً لتعودي إلي بعد أن هربتِ من روما، وبعد أن فشل مخططك في حملي على الزواج بك؟ علمت حينها أنني لن أتزوج بك، مع ذلك طاردتني خلال الأشهر الثلاثة التالية، فكنتِ تحضرين إلى مكتبي في لندن كلما علمت أنني موجود في المملكة المتحدة. لطالما حاولت أن تكلميني عبر الهاتف أينما كنت.

رمقها فيتو بنظراته الفارغة الباردة، وتابع: «كيف يتلاءم ذلك مع نسختك للأحداث بقولك إنك الآنسة البريئة الصغيرة؟».

بدا صوت فيتو سطحياً خالياً من أي أثر للعواطف. فتحت رايتشل فمها، وما إن أشرق عليها الإدراك، عادت وأغلقته مجدداً. أحست مجدداً باليأس الذي أحسته عندما ذلّت نفسها بمحاولة الاتصال بفيتو، كما لو أن هذا الأمر حصل بالأمس لا منذ سبع سنوات.

كيف يمكنني أن أخبره بسبب يأسي الشديد؟ لا يمكنني! لا يمكنني!

فجأة أدركت رايتشل وقد غمرتها موجة سوداء مغرقة، بأن الأمر ميؤوس منه. من غير المجدي أن تحاول مهاجمة فيتو، وأن تدافع عن نفسها، فهو سوف يبرر نفسه في كل مرحلة.

حسناً! ما يهمها؟ إنها لم تعد بحاجة إليه. لقد حصلت على ما جاءت إلى هنا من أجله، تماماً مثلما قالت له للتو.

بل حصلت على الكثير بالإضافة إلى ذلك. لقد نالت درساً آخر من سيّد المخادعين. يا إلهي! فليكن هذا هو الدرس الأخير... الأخير على الإطلاق.

استدارت رايتشل مبتعدة، إذ إنها لم تعد تقوى على تحمل المزيد، فالهزيمة لوت ظهرها وسحقتها.

فيتو فارنيستي هو بمثابة لعنة على حياتها منذ وقعت عيناها عليه للمرة الأولى. إنه كالحمى في دمائها... غير سليمة ومفسدة.

أمضت رايتشل سنوات شاقة في محاولة إخراج هذه العدوى من مجرى دمائها. ربما الآن، بعد هذا الانهيار البشع، قد تنجح أخيراً في انتزاعه من كيانها.

مشت ببطء نحو الباب المؤدي إلى البهو.

- رايتشل!

أجابته رايتشل بصوت متثاقل وهي تغادر الغرفة: «اذهب إلى الجحيم، فيتو!».

حسناً! لن يفيدها أن تقول له بأن يذهب إلى الجحيم، فبهذا الأسلوب هي لن تتخلص منه.

الجحيم هو حيث هي موجودة تماماً... إنها تعيش في الجحيم.

٨ ــ أين المفر

تركها فيتو ترحل، فيما غمره غضب سوداوي باهت.

إذاً، رايتشل فايل تدّعي أنها بريئة! بريئة كالحمل الوديع. تدعي أنها لم تحاول مطلقاً أن توقعه في الشرك كي يتزوج منها!

اشتد فم فيتو ليصبح أشبه بخطين رفيعين. يسهل قول ذلك. آه! يسهل جداً قول ذلك بعد مرور سبع سنوات، لكن ذكرى تلك اللحظة عندما دخلت آرلين غراهام عليهما في الشقة، سوف تلازمه إلى الأبد. إنه مشهد يتكرر في ذاكرته على الدوام، وينتزع منه كل حلاوة ظن أنه عرفها مع تلك الفتاة التي أمضى معها أسبوعين من الزمن. تلك الفتاة التي كرّس نفسه لها... كرّس نفسه لأنه...

لا! هو يرفض أن يعود ليسلك ذاك الدرب مجدداً. إنه درب محدد للأغبياء والمغفلين وللرجال الذين يسهل سقوطهم... الرجال اللينين، تماماً كما كان هو يومها.

استطاع فيتو أن يشعر بفراغ في أحشائه، مشابه تماماً لما شعر به في ذلك اليوم منذ سبع سنوات، لحظة أدرك أنه تم الإيقاع به باعتباره شخصاً ثرياً يسهل خداعه من قبل عشيقة والده وابنتها. نصبت المرأتان له فخاً معسولاً كي يصطاداه من خلاله.

يا إلهي! لقد وقع في الفخ. كان مأخوذاً بها تماماً. مشي على الدرب المزروعة بالأزهار، ثم انقلب على رأسه ليقع في الفخ الذي نصبته له. لكنه رفض الوقوع في الأسر، فخرج من الفخ سليماً.

قفزت الذكرى مجدداً أمام عينيه... كان فيتو قد غازلها ومازحها

www.liilromancia.com

وعانقها متذوقاً حلاوتها حين سمع ذاك الزعيق الصاعق، وسمع الآنسة الصغيرة البريئة... غير البريئة تشهق بصدمة مصطنعة، بينما راحت والدتها تصرخ عليها وعليه، فتتهمه بأنه يغوي ابنتها العذراء الغالية. سجّل فيتو هذا التمثيل المتقن بجزء من الثانية، فأدرك أن ليس هنالك سوى مفرّ واحد من الخدعة، هو قلب الطاولة عليهما معاً!

نهض من مكانه من دون أن يزعج نفسه بالاستفسار عن أي شيء ولو بشكل عابر جداً. استطاع أن يتذكر بالضبط ما قاله. يومها تشدّق قائلاً: «أغويتها؟ بالكاد... هي التي ارتمت بين ذراعي».

اعتقد لوهلة بأن آرلين غراهام سوف تصاب بسكتة دماغية، إذ أخذت تزعق بصوت مرتفع أكثر فأكثر، فأغرقت ردّة الفعل التي أبدتها رايتشل.

يومها أصدرت رايتشل صوتاً هادئاً جداً. لم يكن شهقة ولا أنيناً ولا صرخة... عبس فيتو بعمق أكبر، وفكر أنه بدا كشيء... شيء ينكسر...

غمرت القسوة وجهه مجدداً.

ردّة فعل رايتشل بأسرها كانت جزءاً من المخطط الذي رسمته مع والدتها. هذا كل شيء. آرلين تلعب دور الوالدة التي توجه الاتهامات، ورايتشل تلعب دور البريئة الضائعة، أما والده... بالطبع، كان يفترض به أن يلعب دور الأب الصالح، فيأمره... هو الابن النذل بأن يصلح موقفه، ويتزوج الابنة الصغيرة المخدوعة...

حسناً! إنريكو نفسه لم يكن سهل الانقياد، إذ أنب عشيقته وأعادها إلى حجمها الأصلي، فأخرس زعقاتها المهينة الهستيرية. أما بالنسبة إليه... تنحى به والده جانباً في وقت لاحق، وقال له بفظاظة إنه إن فكر ولو قليلاً بأن يتزوج ابنة آرلين، عندها يمكنه أن يبحث عن شركة أخرى يعمل لديها، كما يجدر به أن يجد عملاً ذا مدخول جيد، لأنه لن يعود مرشحاً لأن يرث شركة فارنيستي الصناعية...

بالطبع فيتو لم يكن بحاجة إلى من يقول له ذلك، أما رايتشل غراهام... فايل... مهما كان الاسم الذي تطلقه على نفسها لكي تحاول أن تبدو محترمة، فيمكنها أن تذهب بعيداً بحثاً عن زوج آخر توقعه في فخّها المعسول!

لكن ذلك لا يعني أن الأمر لم يتطلب منه وقتاً طويلاً كي يصدها عنه. يا إلهي! حاولت رايتشل جاهدة أن تستعيده. يومها قادت حملة مستمرة لمدة ثلاثة أشهر حتى تتصل به.

الله وحده يعلم ما هو الشيء الذي أقنعها أخيراً أن تستسلم. لا بد أنها أخيراً فهمت الرسالة بأنه لا يرغب في معرفة شيء عنها. أو لعلها تعرفت إلى رجل آخر في ذلك الوقت. فوضعت نصب عينيها مغفلاً آخر أكثر غباءً منه. هذا لا يعني بالطبع أنها تمكنت من إقناع أي رجل أن يتزوج بها... حتى الآن.

خطا فيتو عبر الغرفة، فجذب باب خزانة الملابس وفتحه ليجد بعض الملابس كي يرتديها.

بدا مزاجه معكراً تماماً. ما الذي يفعله هنا بحق الجحيم؟ ما كان يجدر به أن يسمح لغروره أن يسيطر عليه فيوافق على عرض رايتشل المضحك. ما الذي يهمه بحق الجحيم إذا ما كانت رايتشل ترغب بإقامة علاقة حميمة معه أم لا؟

تجمدت يده على القميص التي كان على وشك أن يزيلها عن علاّقة الملابس. بدا له كأنما حجراً ما يملأ رئتيه. تذكر فيتو أنه ناداها ذات يوم باسم فتاته الجميلة مستخدماً اللغة الإيطالية. تذكر أنه حملها بين ذراعيه وأحس بجسدها يرتعش في أحضانه. تذكر أنه عانقها بشغف وشوق، وهو أمر لم يمنحه لأي امرأة غيرها من قبل. لأن رايتشل فايل ليست كأي امرأة أخرى عرفها على الإطلاق.

أدرك فيتو ذلك منذ اللحظة الأولى. جرى له شيء ما تلك الليلة... شيء لم يكن يتوقعه على الإطلاق. اعتاد فيتو أن يرتاد

الكثير من الحفلات، وتلك كانت مجرد حفلة أخرى يحضرها. يومها ألقى نظراته في أرجاء المكان، فأبقى إحدى عينيه مفتوحة تداركاً للنساء اللواتي لا يرغب باقترابهنّ منه، أما العين الأخرى فأبقاها مفتوحة بحثاً عن نساء أخريات قد يختار من بينهن واحدة كي يتسلى برفقتها تلك الليلة... أو ربما لفترة أطول بقليل إذا ما ناسبه ذلك. ربما يستمر الأمر لبضعة أسابيع، أو ربما حتى شهر أو اثنين، لكن ليس أكثر من ذلك. فأولئك النساء يصبحن طموحات في تلك الحالة، ويبدأن بتصور فرصهنّ في إيصاله إلى مذبح الكنيسة من أجل الزواج. لكن هذا مكان لا نية لدى فيتو في أن يقصده، لأن لديه جراحاً عميقة. هو شاهد ما فعله والده بوالدته، ورأى تأثير ذلك عليها، بحيث صارت حياتهما بؤساً حقيقياً. وبالرغم من أنه لا ينوي اتباع درب والده نفسه، كما أنه يعلم -من دون خيلاء- بأن أي امرأة يتزوجها سوف تتعلق به، وإذا ما سئم منها، فإن التزامه بالروابط الزوجية سيصبح أمراً فوضوياً. فضلاً عن ذلك، ربما ينتج عن ذلك الزواج أولاد، وهو يرفض أن يخضع أي طفل للعذاب الذي عاشه هو نفسه أثناء نموه.

أدرك فيتو أن النساء سوف يبقين دوماً على ما هنّ عليه. أدرك ذلك منذ أن أصبح في سن المراهقة، واكتشف الجاذبية التي يتمتع بها بفضل المزيج الساحر بين ثرائه ومظهره. إنه مدلل فاسد، وهو يدرك ذلك. تعلّم بسرعة أن قليلات هنّ النساء اللواتي يتجاوزن قدرته على النيل منهنّ لو رغب بذلك. ظل بعيداً عن النساء المتزوجات، وملتزماً بالنساء اللواتي رغبن بما يرغب به هو، أي علاقة غرامية سهلة ترضي رغبات الفريقين، حيث لا روابط تقيدهما، ولا قلوب وأزهار عديمة الجدوى. إنها معادلة لا تخيب ولا تخطئ، ولطالما سارت بشكل ناجح، حتى ذلك المساء...

ما هو الشيء المميز في رايتشل، تلك الفتاة الإنكليزية الهادئة التي جذبت عينيه إليها؟ لم يتمكن فيتو مطلقاً في الواقع أن يستنتج السبب.

يومها شعر أنها تتمتع بهالة تقول إن يد أي رجل لم تلمسها قط. ليس فقط بالمعنى الجسدي، وهو أمر استطاع أن يدركه على الفور. بدت غير متأثرة بالمكان المحيط بها. كانت برفقة رايتشل في تلك السهرة فتاتان إنكليزيتان أخريان، لكنهما من طبيعة مختلفة تماماً. إذ بدا من الواضح أنهما واعيتان وتتمتعان بخبرة عاطفية، كما بدتا مطمئنتين واثقتين ولا تشعران بالغرابة البتة. أما رايتشل فبدت مختلفة تماماً.

أمضى فيتو أسبوعين... أربعة عشر يوماً كاملة مكرساً نفسه لها، سعيداً باكتشاف أمر مختلف. أرادت أن تتحدث عن التاريخ، الفن، الأدب، الكلاسيكيات، اللغات، السياسة والاقتصاد... لم تكن رايتشل فتاة ساذجة تحاول التأثير عليه. بدت مسرورة جداً بأن تقذف عملة حجرية في نافورة تريفي، وأن تجرب كل طعم في المثلجات، بدت مسرورة وهي تحدق إلى الأعلى نحو فيتو وقد ظهر في عينيها افتتان لم تدرك وجوده حتى. لكن فيتو لاحظ وجود تلك النظرة في عينيها، وعلم أنه لا يستطيع... ولا يجدر به أن يستغلها. يجدر به ألا يمسها بإصبعه حتى، فهي ما تزال فتاة بريئة. علم ذلك على الفور، كما استطاع أن يدرك أنها غير محنكة على الإطلاق في أساليب الرجال. أما هي فلم تكن تدرك حتى كم أن ذلك يجعلها جذابة جداً بالنسبة لهم.

تمنّع فيتو لأسبوعين طويلين حتى عن ملامستها وعناقها. استخدم كل ذرة من قدرته على السيطرة على ذاته لكي يمنع نفسه من ملامستها، وراح توقه إليها يزداد مع مرور كل ساعة. جاذبيتها بالنسبة إليه راحت تتنامى مع مرور كل يوم، ومع مرور كل ساعة. بدا إدراكه لها حاداً جداً، لكنه لم يظهره لها.

لكن ذلك الأمر أصبح مؤلماً، حتى تلك الليلة... بدت رايتشل كئيبة تحت مرحها الظاهري فهي سوف تعود في اليوم التالي إلى إنكلترا، بعد أن اعتادت على رفقته وارتاحت لها. يومها لم يتمالك

فيتو نفسه فجذبها نحوه، وجعلها تشعر بالأمان والثقة به. بعد قليل سوف ينتهي الأمر بأسره.

فجأة علم فيتو بأن الأمر لم ينته، وأنه لن ينتهي أبداً. هو لن يسمح لرايتشل فايل بالافلات منه. لا يمكنه أن يسمح لها بذلك. جلست رايتشل تحدق إليه بتوق واضح في عينيها، عندما ارتشفت قهوتها الأخيرة من بيازا نافونا. بدا كأنهما يجلسان بمفردهما، وكأن السياح هناك غير موجودين. كأنما الفتاة الجالسة قبالته فقط موجودة بشعرها الذهبي الحريري، وعينيها الواسعتين المملوءتين بالسحر والتوق... شعر فيتو أنه غير قادر على الابتعاد عنها. لذا فعل تلك الليلة ما كان يرغب بفعله منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناه عليها.

أخذها بين ذراعيه باندفاع كان يدرك أنه يجدر به مقاومته، لكنه لم يقوَ على ذلك. بعدئذٍ اصطحبها إلى شقة آل فارنيستي، حيث فعل ما كان يرغب بفعله منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، عانقها عناقاً محموماً حمله كل ما يشعر به من الشغف والشوق نحوها...

أما رايتشل فتجاوبت معه بشغف مماثل. بدا عناقهما كالحلم وأكثر. لم يعرف فيتو قط امرأة شغوفة مثلها.

ضمها إليه محتضناً جسدها الرقيق ضمن دائرة ذراعيه الحاميتين. في تلك اللحظات علم أن شيئاً ما قد حصل، سوف يغير وجوده إلى الأبد. لم يكن قادراً على تسمية ذلك الشيء بكلمات أو إطلاق اسم عليه، لكنه علم أن تلك هي أثمن لحظة في حياته. ثم وصلت الحقيقة... على شكل امرأة صارخة، فعلم فيتو أنه تم التلاعب به كأكبر مخبول في العالم...

بدا وجهه متصلباً كالحديد، قاسياً وغير متسامح. لكنه في مكان ما من أحشائه استطاع أن يشعر بمثل ذلك الشعور الذي تمزق داخل جسده في ذلك اليوم منذ سبع سنوات. إنه الألم الكاوي الممزق!

عندما غادر فيتو سان بيير، كانت رايتشل قد رحلت، وهو لم يأبه.

لم يعد يأبه. إن ثارت أي شكوك حول زواجهما، فهو سوف يبتدع رواية ما بخصوص عروسه الشديدة الحساسية التي تصرفت بنزق. أمضى حوالى الساعتين متحدثاً عبر الهاتف، ثم أرسل رسالتين إلكترونيتين إلى تورين وإلى لندن. ما إن عاد إلى مكتبه حتى غمرته الأعمال المتأخرة. طرأت على بال فيتو ذكرى والده مجدداً، عندما أنهى مكالمة هاتفية أخرى مع مدير مكاتبه الأوروبية. كان إنريكو يعمل كالجني، ثم يأخذ استراحة من كل شيء، فيختفي مع آرلين. لكن ذلك لم يستطع أن يخلّصه من ضغوطاته النفسية. فمزاج والده قلّما كان جيداً، كان يتزعج بسهولة، فهو كثير الضغوطات وصبره قليل.

انجذب فم فيتو بانحناءة ساخرة. آرلين غراهام عملت مقابل المال الذي أخذته من والده. حسناً! لم يكن من السهل أن تكون مساعدة والده وعشيقته معاً. لربما حصلت آرلين على بعض الأغراض الثمينة وعلى حياة مترفة سهلة، لكن لا شك أن حياتها مع والده لم تكن سهلة. مع ذلك لا بد أن آرلين وجدت تلك الحياة ملائمة لها، لعل والده منحها أكثر مما كشف عنه لابنه.

شدّ العبوس وجه فيتو.

لكن إنريكو لم يترك لها شيئاً، حتى الفيلا. آرلين لم تخرج من علاقتها بوالده وهي تحمل ذخائر ملموسة، إلا إذا كان يمنحها المال النقدي بانتظام. باستثناء الزمردات...

تصلب فم فيتو. حسناً! لقد استرجع زمرداته الآن، وجلّ ما كلّفه الأمر رحلة إلى جزر الكاريبي! إنها صفقة جيدة إذا أراد أن يعتبرها كذلك. بالإضافة إلى أنه حصل على رايتشل فايل في سريره كهدية، ذكره جسده بقوة بذلك... هو يعلم أنها تكذب، بغض النظر عن كل الاعتراضات التي أوردتها. مهما حاولت أن تلعب دور الفتاة الصغيرة البريئة، هو يعلم أنها مدّعية. لو أنها حقاً بهذه البراءة، فلماذا إذاً راحت تحاول باستمرار أن تتواصل معه... لا! رايتشل هي داهية،

متلاعبة وتحاول ادعاء البراءة. لكن بالرغم من ذلك هو ما زال يشعر بالانجذاب نحوها...

اخترقته طعنة من الشوق، كأنها تعاقبه بشدة إلحاحها. استطاع فيتو أن يشعر بجسده يجيش نهماً ليضم رايتشل بين ذراعيه من جديد. مهما كان الشيء الذي كانت تمتلكه رايتشل فايل وهي في الثامنة عشرة من عمرها، فهي ما زالت تملكه... بل أكثر من ذلك حتى. لكنها هذه المرة لن تتلاعب به كالمخبول، لأنه عرفها على حقيقتها الآن. إنه يعرف رقم هاتفها الآن، وهو يرغب في الاتصال بها. أحس فيتو بالشوق يتملكه مجدداً. أراد أن يشعر بجسدها الحريري الناعم بين ذراعيه. أراد أن يرى شعرها منتشراً حول وجهها الجميل الشغوف. إنها الآن زوجته ويحق له المطالبة بحقوقه الزوجية.

رايتشل هي المرأة الوحيدة التي يتمنى لها الهلاك بسبب ما فعلته به في الماضي، لكنها مع ذلك ما تزال قادرة على التأثير فيه بقوة، لذا فهو ما يزال يشعر بالانجذاب إليها. إنه لا يقدر على تقديمها للعالم على أنها زوجته. لكنه سوف يضعها في شقة لائقة في لندن، ويقوم بزيارتها متخفياً، كما لو أنها عشيقته.

رفع فيتو سماعة الهاتف بقرار مفاجئ فطلب إحضار وسيلة النقل لتعيده من الجزيرة إلى أنتيليا، ثم اتصل بربان الطائرة الخاصة به كي يعدّها للاقلاع. ما زال أمامه اتصال هاتفي آخر.

ليس هنالك إلاّ مكان واحد ستقصده. لاشك أنها ستعرض وثيقة زواجها لتتباهى بها أمام حبيبها. حسناً! يمكنها أن تفعل هذا إذا كان الأمر يرضيها ويمتعها، لكنها ستكون المرة الأخيرة التي تقابل فيها حبيبها ذاك، إلى أن يمل منها هو، فيسمح لها بالحصول على الطلاق.

رايتشل زوجتي، وأنا أنوي أن أستمتع بعروسي. عليها بكل بساطة أن تتخلص من ذلك الحبيب، وسوف أؤمن لها حياة راضية.

سوف يجعلها تشعر بالرضى تماماً. سوف يجعلها ترى أن ما

يملكانه الآن يستحق أن يضعا خلافاتهما جانباً لأجله. إنه مستعد لأن يبقيها إلى جانبه شرط أن تتوقف عن محاولة الدفاع عن نفسها وتحتفظ بمواهبها في السرير له وحده. إنه مستعد حتى لأن يشتري لها شيئاً يعوضها عن الزمردات. بالطبع لن يشتري لها شيئاً بالقيمة الغالية نفسها، لكنه يفكّر بشيء يمكنها أن ترتديه له في مكان خاص... خاص جداً... جال ذهنه على دروب مشوقة، فتخيلها تتألق بالماس...

أعاد فيتو ذهنه إلى الواقع. أولاً هو بحاجة إلى جعلها تبتعد عن حبيبها القديم، ولكي يحرص على إبعاد هذا الأخير هو بحاجة إلى معرفة من يكون. بعدئذٍ يمكنه أن يتخلص منه.

ضغط على أزرار هاتفه النقال طالباً رقم مكتبه في لندن. تم الرد على الاتصال فوراً. بدا فيتو متحكماً بصوته تماماً إذ قال: «سيدة والترز؟ ضعي لي مسؤول الأمن على الخط، لو سمحتِ».

* * *

ارتدت رايتشل ملابسها بحذر شديد. اختارت تلك البذلة الرسمية نفسها التي ارتدتها إلى مكتب فيتو فارنيستي. في الواقع هي لم ترغب بارتدائها، لكنها ليست قادرة على تحمل تبذير المزيد من المال لشراء بذلة ثمينة أخرى. كما أن ثمن تذكرة الطائرة من أنتيليا إلى لندن أضاف عبئاً مالياً جديداً على ميزانيتها المتعثرة. فضلاً عن ذلك، فإن البذلة البنفسجية الأنيقة هي بالتحديد الملابس التي عليها أن ترتديها الآن بصفتها السينيورا فارنيستي، فهي ملابس استثنائية، باهظة الثمن، وأنيقة.

انتقلت رايتشل بواسطة مترو الأنفاق إلى المحطة الأقرب إلى مستشفى والدتها، وهناك أوقفت سيارة أجرة عوضاً عن متابعة المسافة المتبقية سيراً على قدميها. السينيورا فارنيستي لن تمشي. سيارة الأجرة سوف تكون وسيلة النقل التي تقلّها على الأقل، إن لم تكن سيارة

ليموزين يقودها سائق. بالطبع والدتها لن ترى سيارة الأجرة، لكن موظفي الاستقبال في المستشفى سيرونها، وذلك كله سوف يؤكد على صدق ما هي على وشك أن تعلنه لوالدتها. كذلك سوف يفعل هذا الخاتم اللامع في إصبعها. أما أكثر الأمور إقناعاً فهي وثيقة الزواج وتلك الصور التي أخذتها من أندريه عندما غادرت دار شهر العسل.

سوف تظهر لوالدتها أنها سعيدة جداً برفقة عريسها، فيتو فارنيستي...

الكذبة ليست مهمة. ما يهم هو فقط أن تكون مقنعة بما فيه الكفاية حتى تسعد والدتها...

أحست رايتشل بالأسى يخزها بمخالبه الجارحة. سوف تعلم أن ابنتها حققت لها أحلامها قبل أن تفارق هذا العالم.

بمقدورها أن تتمنى قدر ما تشاء لو أن والدتها امتلكت حلماً مختلفاً بخصوصها. حلم ما يترك فيتو فارنيستي بعيداً جداً وراءها في تلك الكارثة التي حدثت في صباها.

لكنك غير قادرة على تركها خلفك. أليس كذلك؟ سمحت لتلك الذكرى بملازمتك، بتسميمك طيلة حياتك منذ ذلك الحين. دمرتِ كل فرصك بإيجاد السعادة مع رجل آخر. فقط لأجل رجل كفيتو!

كادت رايتشل تصل إلى المستشفى، فاستنشقت نفساً عميقاً.

دعي فيتو خلفك الآن! تخلصي منه للمرة الأخيرة! تحرري منه! تحرري من توقك إليه، أرجوك!

جالت ذكرى تلك الليلة مع فيتو في ذهنها، فعضت رايتشل بقوة على شفتها السفلى، محاولة كبت ذاك التفكير... محاولة إطفاء اللهيب الذي قفز داخل دمائها. إنها تشتاق إليه... توقفت سيارة الأجرة، فهزت رايتشل نفسها خارج تلك الذكرى.

اصطدمت بالواقع مجدداً، فجلب معه ثقل القلب المعهود الذي تحس به كلما أتت إلى المستشفى. أعطت سائق السيارة أجره.

- طاب نهارك آنسة فايل. تبدين متألقة جداً اليوم!

ابتسمت عاملة الاستقبال بإشراق لها، وقد صارت وجهاً مألوفاً بالنسبة إليها الآن. بعد أن وقعت على أوراق الدخول، قالت لها موظفة الاستقبال: «ادخلي أرجوك».

لم تكن والدتها نائمة، بل في حالة تعاس وتخدير. بدا ذهنها مغشياً ومشوشاً، لكن وجهها أشرق عندما دخلت رايتشل، فمدّت نحوها يدها الواهنة الضعيفة. اعتصر الألم قلب رايتشل فيما نظرت إلى والدتها المحتضرة. جلست وأخذت يد آرلين الضعيفة بيدها. وبعد برهة قصيرة انحنت إلى الأمام وقلبت خدها الهزيل بعناية ورقة، ثم استنشقت نفساً من أجل تهدئة أعصابها.

هذا هو الوقت الحاسم. لا مجال للتراجع أبداً.

ابتسمت رايتشل تاركة الابتسامة تضيء عينيها، ووجهها.

- هناك أمر أود أن أخبرك به... إنه شيء رائع...

* * *

استقام فيتو فجأة في كرسيه: «إلى أين ذهبت؟».

- إلى عيادة ماكفارلاين في هامبستيد، يا سيد فارنيستي. استقلت قطار الأنفاق المتجه إلى الجنوب نحو...

- أين هي الآن؟

قاطع فيتو الرجل الذي يعمل في وكالة الحماية والأمن الخاصة بشركته بفظاظة وقلة اهتمام بسبب معرفته ما هي وسيلة النقل التي استقلتها رايتشل بعد ظهر هذا اليوم.

- عادت المرأة إلى منزلها حوالى الساعة السادسة والنصف بعد الظهر. أحد عملائنا يراقب المبنى، لكن المرأة المستهدفة بقيت في الداخل منذ عودتها إلى هناك.

جلس فيتو مستنداً إلى الوراء، فيما راحت الأفكار تتسارع في ذهنه.. مستشفى؟! ما الذي تفعله رايتشل بحق السماء في المستشفى؟ سأل فيتو: «أي

نوع من المستشفيات؟».

- عيادة ماكفارلاين هي مستشفى خاص متخصص في عموم الأمراض. إنه...

قاطعه فيتو مجدداً: «ابقِ رجلك خارج المبنى. أنا في طريقي إلى هناك. اتصل بي على هاتفي النقال إن غادرت المبنى».

قطع فيتو الاتصال ونهض، ثم قذف الهاتف على طاولة القهوة المنخفضة.

ما الذي تفعله رايتشل في المستشفى بحق الجحيم؟ هل هي مريضة؟ أحس بطعنة من الخوف تسيطر عليه فجأة.

قاوم ذلك الشعور بقوة. إنه لا يريد أن يشعر بأي شيء تجاه رايتشل فايل، لاسيما بذلك الخوف غير العقلاني الذي اخترقه للتو. لعلها كانت تزور أحدهم فقط. لعلها لم تذهب إلى هناك من أجلها شخصياً، بل من أجل شخص آخر. لكن لأجل من؟ من هو الشخص العزيز على قلب رايتشل والذي يعني لها الكثير بحيث ذهبت لتزوره مباشرة بعد أن قطعت المحيط الأطلسي؟ مباشرة بعد أن أصبحت السيدة فارنيستي؟ أطبق فمه في عبوس غاضب. الحبيب! أهو من ذهبت لتراه؟ هل ذهبت لتوبخه ساخرة...؟ أتراها توبخ رجلاً محتجزاً في سرير بمستشفى؟

* * *

حدّقت رايتشل بفراغ إلى شاشة كمبيوترها المحمول. يفترض بها أن تركز على ترجمة الوثيقة القانونية المعقدة الموضوعة إلى جانب الكمبيوتر بالقرب من القاموس الإسباني الذي كان مفتوحاً على الطاولة، لكنها لم تكن قادرة أن تركز على عملها. لا بد أنه التكاسل بسبب سفرها بالطائرة. لا بد أنها تشعر بالارهاق بسبب تغير التوقيت الزمني. فهي عبرت المحيط الأطلسي مرتين بسرعة وذلك في فترتين متقاربتين جداً. ما زالت تشعر أنها مرهقة على الرغم من أنها نامت

خلال رحلة العودة من ميامي إلى لندن. أو لعله إرهاق الروح لا الجسد... بدا وجهها كئيباً داكناً.

قمت بالأمر الصائب... أعلم ذلك!

تذكرت رايتشل صورة وجه والدتها عندما أخبرتها بعد ظهر اليوم. أشرق نور ما من خلال الأمل والارتباك في وجه آرلين ما إن سمعت بخبر الزفاف. تهدّج صوت والدتها فبدا مرتجفاً وهي تقول: «آه، يا عزيزتي! هل هذا صحيح؟ هل هو صحيح فعلاً؟».

حدّقت بعينيها المغشيتين نحو رايتشل، ثم سمرتهما بثبات على قطعة الورق السحرية التي حققت لابنتها ما لم يُنعم عليها بتحقيقه. حدّقت إلى صور ذاك العرس الشبيه بالأساطير، حيث وقفت ابنتها الجميلة وهي ترتدي فستان عرسها وتضع زمردات فارنيستي حول عنقها، إنها عروس فارنيستي حقيقية، وإلى جانبها يقف عريس فارنيستي حقيقي.

توسلتها آرلين قائلة: «أخبريني! أخبريني كل شيء!».

وأخبرتها رايتشل... حبكت لوالدتها رواية رومنسية أشبه بالقصص الخيالية. إنها قصة مفادها أن فيتو فارنيستي التقاها مجدداً في حفلة أقيمت لكبار المدراء في الشركة التي تعمل لديها في ترجمة الوثائق. وذلك احتفالاً بإطلاق أحد منتجاتهم.

تلاقت عيونهما عبر الغرفة المكتظة، وغمرهما عدم التصديق لوجودهما معاً هناك، بعدئذٍ اقترب منها فيتو، وتوسلها كي تسامحه على معاملته الفظة لها خلال السنوات الماضية، قائلاً لها إنه كان شاباً قليل الخبرة. ثم دعاها إلى الخروج معه. تابعت رايتشل تقول: «لم أرغب بأن أقول لك أي شيء أمي... لم أشأ أن أزعجك، من قبل، إذ ربما... حسناً! خشيت ألاّ ينجح الأمر».

أضافت والابتسامة تضيء وجهها: «لكن الأمر نجح فعلاً! ثم حملني وطار بي...! أخذني إلى جزر الكاريبي، وآه، يا أمي... بدا

الأمر أشبه بصورة من فيلم سينمائي. نظّم فيتو زفافاً مميزاً على جزيرة شهر العسل الخاصة بنا، وقد تزوجنا أمي... تزوجنا! انظري!».

دفعت رايتشل يدها اليسرى، فسمحت لوالدتها أن تلمس الخاتم المحيط بإصبعها.

- آه، يا عزيزتي!

تنفست الوالدة مجدداً بذلك الكلام، فانقبض قلب رايتشل عندما رأت نور السرور في عيني أمها. ثم انقبض مجدداً، فيما حدّقت آرلين بها. التعابير المرتسمة على وجهها جعلت رايتشل ترغب بالبكاء. قالت أمها: «يمكنني أن أموت سعيدة الآن».

طعنها السكين مجدداً في قلبها لدى استرجاعها لما حصل، فحدّقت من دون أن ترى نحو شاشة الكمبيوتر.

قمت بالأمر الصائب. أعلم أنني فعلت! كرّرت رايتشل كلامها. لكنها مع ذلك أحست بفجوة تنفتح في داخلها. إنه شعور بالفراغ التام لا يمكن ملؤه أبداً.

انتزعت رايتشل فيتو فارنيستي بالقوة من داخلها. ظل يطاردها طيلة سبع سنوات طويلة. إلاّ أن مواجهتهما دمّرت الشبح الذي جثم على قلبها مذ كانت في الثامنة عشرة من عمرها، ولم يغادرها أبداً. لكنها الآن تشعر بتلك الفجوة الممزقة الفارغة تنمو في داخلها.

إنها لن تراه أبداً من جديد. بغض النظر عن مدى السوء الذي تصرفت به لإجبارها فيتو على الزواج منها، فإن تصرفه على الجزيرة قد مسح تماماً أي أثر متبقٍ من الأمل بأن يقرّ بما فعله بها في الماضي.

حدّقت رايتشل عابسة تجاه الشاشة. ظن أنك كذبتِ عليه عن عمد فلم تخبريه من أنت، فأغويته حتى تأسريه. هو مقتنع بأنك خططتِ لذلك مع والدتك.

أطبقت رايتشل فمها. أغويته؟! بحق الله! كانت مجرد فتاة بريئة في

الثامنة عشرة من عمرها، وما تزال في المدرسة! كيف يمكنها أن تغويه، بحق السماء؟ فيتو يكبرها بعشر سنوات، وهو متمرّس... آه! نعم، متمرس جداً! كان معتاداً على الحصول على النساء الجميلات منذ أن كان مجرد مراهق. والدتها أخبرتها الكثير عن سمعة فيتو وسجلّه الحافل، وذلك بعد أن وجدتهما معاً في الشقة.

فكرت رايتشل بمرارة، لا! لن تتقبل أن يتهمها بهذا الشكل. طيلة الوقت كان اللوم موضوعاً على الطرف الخاطئ، بالرغم من أنها كانت أغبى من أن تلحظ ذلك في حينها.

حسناً! لا مجال أبداً لأن أسمح لك بذلك أيها الرجل المفترس الشديد الجاذبية والسحر المدعو فيتو فارنيستي!

تركت رايتشل الغضب يتقلب في داخلها، وقد أحسّت بقوته الحارقة. الغضب هو ما أرادت أن تشعر به الآن، وما هي بحاجة لأن تشعر به. إنها غاضبة بسبب كل شيء قاله لها فيتو فارنيستي. أطبق فك رايتشل بحزم أكبر، فيما واجهت السبب الأخير لغضبها. تمكن فيتو من أخذها إلى سريره بسهولة تامة حين قرر ذلك، أما هي فبدت واثقة به وسهلة الانقياد.

اخترقها الغضب كالسكين الجارح، عميقاً حاداً. ليس تجاه فيتو فقط بل تجاه نفسها أيضاً.

خدعني فيتو مرتين... مرتين!

حسناً! اللوم يقع عليها وحدها... حسناً! بغض النظر عن مقدار غبائها، لأنها صدقت بحماقة أن فيتو تغير. الغضب العميق الجارح سببه أنها لم تقدر على إخراجه من داخلها، وأنها على الرغم من معرفتها لفيتو فارنيستي على حقيقته، فهي ما زالت منجذبة إليه.

لكنني هربت! عندما وجه لي تلك الكلمات الجارحة هربت! لم أخضع له... لم أستسلم مجدداً! والآن رحل فيتو. خرج من حياتي إلى الأبد، ويمكنني أن أشعر بالارتياح... أخيراً يمكنني أن

أرتاح... لماذا إذاً تشعر أن الفراغ في داخلها يتآكلها؟

كانت رايتشل تقلّب الصفحات الرقيقة في الكتاب السميك عندما رنّ جرس هاتف المدخل. توقفت عن الحركة على الفور فيما شعرت بالتوتر. قفزت على الفور إلى ذهنها ذكرى آخر مرة حظيت فيها بزائر. حصل ذلك منذ أسبوع فقط، خلال تلك الفترة القصيرة من الوقت غرقت رايتشل في عاصفة هوجاء من العواطف المعذبة.

من المرجح أن يكون أحد جامعي الحسنات أو أن أحدهم أخطأ بالشقة. لا يعقل أن تكون هذه زيارة اجتماعية، فمنذ مرض والدتها ابتعدت رايتشل عن حياتها الاجتماعية تماماً. حاول البعض من زملائها أن يبقوا على تواصل معها، لكن رايتشل صدّتهم، لأنها لم تعد قادرة على تحمل اهتماماتهم العادية التي لا علاقة لها بقلقها بسبب مرض أمها وموتها المتوقع. لم تعد ترغب بتمضية أي وقت فراغ تحظى به من عملها، بعيداً عن والدتها، ما دامت هذه الأخيرة على قيد الحياة.

أمضت رايتشل قدر ما استطاعت من الوقت برفقة والدتها. كانت تجالسها في غرفتها، فتقرأ لها أحياناً، أو تثرثر معها إذا شعرت أمها برغبة في ذلك، وأحياناً تهتم بالأمور الصغيرة فتمشط شعر والدتها أو تطلي لها أظافرها. أحياناً تأخذ رايتشل معها كمبيوترها النقال وتجلس واضعة إياه على ركبتيها، فتعمل بينما تستلقي والدتها أمامها، فيما يبث الراديو الموسيقى بنعومة. حاولت بشتى الوسائل أن تعوض عن تلك السنوات التي لم تمضها برفقة والدتها عندما كانت شابة.

تساءلت ما الذي ستقوله بحق السماء لوالدتها بخصوص عدم تغيّر نمط حياتها منذ أن تزوجت فيتو فارنيستي، لكنها سرعان ما أدركت أن تلك لن تكون مشكلة، فهي قالت الكثير بعد ظهر اليوم.

- سوف أستمر بزيارتك بقدر ما كنت أزورك من قبل، أمي. فيتو يعمل كثيراً في لندن الآن، لذا سوف نقيم هنا. آه! أنا واثقة من أنه

سيضطر لزيارة روما وتورين، لكنه يعلم أنني أريد البقاء هنا معك...

شتّ صوتها ولم تتمكن رايتشل من متابعة كلامها.

- ذلك لطيف جداً من قبله... ألاّ يبقيك بعيدة عني ما دمت... ما دمت مريضة جداً. أنا... أنا أعلم أنه لا يرغب مطلقاً في التعاطي معي... أنا أتفهم ذلك.

قالت والدة رايتشل هذا، فيما ظهر الامتنان في صوتها، وذلك مزّق قلب رايتشل. بعدئذٍ أظلمت عينا آرلين قليلاً، كما لو أنها تذكرت أموراً مؤلمة، فتابعت قائلة: «إنه... لطالما كان مقرباً جداً من والدته. كان... الأمر صعباً بالنسبة إليه. رؤية إنريكو معي، جعله...».

تلاشت كلمات آرلين، فقد تطلب منها الكلام الكثير من القوة، سُمع الأزيز من مدخل المبنى مجدداً، وهذه المرة بدا أعلى وأكثر إلحاحاً.

شعرت رايتشل بالسرور لهذه المقاطعة التي قطعت حبل ذكرياتها. دفعت كرسيها إلى الخلف فوق السجادة البالية، فعبرت غرفة النوم نحو الباب وحملت السماعة، ثم سألت: «من؟».

سماع صوت فيتو على الطرف الآخر من الخط جعلها تمسك بمقبض الباب. ها هو فيتو فارنيستي عند عتبة بابها مجدداً. لماذا جاء هذه المرة؟

- افتحي الباب رايتشل!

سمحت رايتشل له بالحصول على ما يريده. إذا لم تفتح الباب يمكنه أن يطلب من رجاله أن يخلعوا الباب. سوف ينتهي بها الأمر بأن تضطر إلى التعويض عن الأضرار التي يسببها ذلك. والآن بالذات هي غير قادرة على دفع التكاليف.

فتحت له رايتشل الباب، واستغلت تلك اللحظات القليلة الوجيزة فيما تسلق فيتو الدرج لكي تحاول تثبيت ضربات قلبها الذي راح يخبط

بقوة. جاش الأدرينالين في دمها. إنه هرمون الخوف. هذا كل شيء. كاد يغمرها تسارع مفاجئ للهلع، يحذرها بأنها مجنونة لو سمحت لفيتو أن يقترب منها مجدداً. لكن فات الأوان الآن. سُمع وقع قدمين خارج باب شقتها الصغيرة، ثم سُمع قرع على الباب.

فتحت رايتشل الباب ببطء... ما إن وقعت عيناها عليه حتى أحست بالأدرينالين يتسارع في جسدها مجدداً. الخوف... إنه مجرد خوف. هذا كل شيء.

لا تنظري إليه!

لكن التحذير بدا من دون جدوى، فعينا رايتشل أصبحتا على الفور منجذبتين نحو فيتو، ولم تقوَ على إبعادهما عنه. كان فيتو يرتدي بذلة عمل رسمية غامقة اللون ذات تصميم إيطالي رفيع. فيما تشع منه قوة رجولية صافية مخيفة.

علقت الأنفاس في صدرها...

- ما الذي تريده؟

طالبته رايتشل بفظاظة وهي ما تزال تمسك بالباب مفتوحاً عن قصد، على الرغم من أن فيتو كان قد دخل إلى الشقة. ألقى فيتو نظرة مزدرية في أرجاء المكان، تماماً كما فعل في المرة الأولى التي دخل فيها إلى هنا.

عادت عينا فيتو لتطعناها. بعدئذٍ مدّ يده وتناول منها مقبض الباب، فأغلقه بإلحاح. طالبها قائلا: «لماذ قمتِ بزيارة عيادة ماكفارلاين بعد ظهر هذا اليوم؟».

أحست رايتشل أن سؤاله هذا أشبه بلكمة في معدتها.

- م... اذا؟

ضاقت عينا فيتو، فكرر قائلاً: «لماذا قمتِ بزيارة عيادة ماكفارلاين بعد ظهر هذا اليوم؟».

استجمعت رايتشل بتباطؤ تمالك النفس الذي قدرت عليه، قائلة:

«هذا موضوع لا يخصك».

- هل أنت مريضة؟

هزت رايتشل رأسها نفياً قبل أن تقوى على منع نفسها.

تغير شيء ما في وجه فيتو، واستبدل ذاك التعبير بآخر جعلها تشعر بالقشعريرة حتى أعماقها. بدا كأن ستارة سوداء اسدلت على وجهه.

- هل أنت حامل؟

www.elromancia.com

٩ ــ اعترافات مؤلمة

فوجئ فيتو بهذا السؤال الذي جاء من لامكان. إنها فكرة لم تطرأ على ذهنه حتى هذه اللحظة. لكن لحظة أومض هذا الاحتمال في رأسه، انتابه إحساس مفزع بأنه ربما اكتشف للتو بأن رايتشل فايل تمارس لعبة أكثر مهارة مما تصور على الإطلاق.

بالرغم من أن فيتو حمى نفسه في اتفاقية ما قبل الزواج كي لا تسلبه رايتشل أمواله متذرعة بأية مطالب مالية مستقبلية لكن مع هذا من الممكن أن تكون رايتشل قد تغلبت عليه بألاعيبها. ماذا لو أنها تزوجته وهي حامل أصلاً؟ يا إلهي! أهذا هو هدفها من هذه المهزلة؟ أن تربطه بطفل رجل آخر... بطفل رفض والده الطبيعي أن يتزوج منها؟ حسناً! يمكنه دوماً أن يصر على إجراء فحص جيني يثبت أبوته، وإن كانت النتيجة سلبية فهو يستطيع التخلص منها بسهولة.

غدا وجه رايتشل كالصفحة البيضاء، فيما أحس فيتو كأن ركلة وجهت إلى أحشائه. الأمر صحيح إذاً... إنها حامل بطفل رجل آخر. أحس أن الجنون والهيجان يخترقانه كالسكين. لكن السبب لم يكن غضبه من رايتشل، أدرك فيتو ذلك غير مصدق. إنهما السخط والغضب الموجهان تجاه الرجل الذي جعلها تحمل، ثم رفض الزواج بها. أحس بالغضب الشديد تجاهها أيضاً لأنها سمحت لرجل آخر أن يلمسها. لن يلمس أي رجل رايتشل مجدداً. ما من رجل غيره سوف يشعر بجسدها الجميل بين ذراعيه. هو فقط سوف يحصل على رايتشل فايل، فقط هو، فيتو فارنيستي.

لكنه تأخر كثيراً. هناك رجل غيره ترك أثره عليها... تملّكها... وجعلها تحمل، ثم تخلّى عنها.

راحت رايتشل تحدق بفيتو، فيما بدا وجهها أبيض كالطبشور. جاء صوتها أجش وهي تقول: «لا! لا، أنا لست حاملاً».

استنشقت رايتشل نفساً عميقاً مرتعداً بدا كأنه يهز جسدها النحيل بأكمله. انزلقت عيناها بعيداً عنه، إذ لم تقدر على ملاقاة عينيه، فالتهب اللون فجأة في وجنتيها قبل أن يتلاشى ليصبح باهتاً.

غمره إحساس بالارتياح، ثم تلاه إحساس آخر. إن لم تكن رايتشل حاملاً، إن لم يكن ذلك هو سبب ذهابها إلى تلك العيادة اليوم، فما هو السبب؟ لا بد أنها ذهبت لكي تعرض وثيقة الزواج وتتباهى بها في وجه عشيقها ذاك.

- أكرر ثانية، لماذا ذهبتِ إلى عيادة ماكفارلاين بعد ظهر هذا اليوم؟

أحست رايتشل بالهلع يتضاعف في صدرها. طلب فيتو من رجاله أن يلاحقوها، وهكذا علم أين كانت. كيف يجرؤ على ذلك؟ لكن لماذا تراها تستغرب الأمر؟ فعل ذلك من قبل، في المرة الأخيرة التي زارها فيها هنا. طلب ملاحقتها من مكتبه وصولاً إلى هنا. لكن، لِمَ عساه طلب ملاحقتها الآن؟ انتهت مهزلة زواجهما، فهي من غادرت. يجدر به ألاّ يهتم بالتواصل معها، أو برؤيتها مجدداً، ولا بالتسبب لها بالعذاب مجدداً. لماذ يصر على استجوابها؟ يمكن لمحاميه أن يتولى أمر الطلاق.

ردت بصوت رصين جداً قائلة: «لست مضطرة إلى الرد على سؤالك».

لم تظهر في صوتها أي ارتعاشة. لكنها لم تشعر بالارتياح تماماً. قد يبدو صوتها غير مترنح، لكن الأدرينالين الذي يجول في أرجاء جسدها جعلها تشعر أنها ضعيفة كالقصبة. ذاك السؤال حول كونها

حاملاً كاد يقطع ركبتيها. اخترقها الخوف. لا يمكن أن تكون حاملاً... بحق الله! لا يمكن أن تكون كذلك. آخر شيء قد يرغب به فيتو فارنيستي هو أن ينجب طفلاً من رايتشل فايل الابنة غير الشرعية لآرلين. اخترق الألم لحمها كالجليد البارد. إنه ألم شديد جداً لا يحتمل. إنها بحاجة إلى تحصين دفاعاتها. حسناً! الغضب سوف يفي بالغرض.

رمت رأسها إلى الوراء، وطالبته قائلة: «ما هذا بحق الجحيم، لماذا تقتحم منزلي وتطرح أسئلة لا تعنيك البتة؟».

- ذهبتِ لتقابلي عشيقك، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ ذهبت إلى تلك العيادة لكي تعرضي عليه وثيقة زواجك الغالية وتتباهي بها!

انفتح فمها ثم عاد وانغلق تماماً.

- أجيبيني!

قالت: «لست مضطرة لأن أجيبك فيتو».

تجاهلها فيتو مجدداً، وطالبها قائلاً: «ما هو اسم عشيقك هذا؟».

بدا فيتو مصراً، عديم الرحمة.

- لست مضطرة لأن أخبرك!

- أجيبيني!

- لست مضطرة إلى ذلك!

ارتفع صوت رايتشل، أما عينا فيتو فاستقرتا عليها، وقد أصبحتا سوداوين كسواد الليل.

- لا، لست مضطرة إلى ذلك. جل ما عليك فعله هو أن ترافقيني إلى العيادة. وبصفتي زوجك، أنا واثق من أن المستشفى سوف يسرّ بالسماح لي بمرافقتك في زيارتك.

- لا!

- بلى.

لم تفارقها عينا فيتو، فاستقرتا عليها بنظرات سوداء حاقدة جعلت

الخوف يرتعد في عروقها، ثم قال: «في الواقع، بصفتي زوجك أنا واثق أن المستشفى سوف يسمح لي بالزيارة ولو بمفردي».

اشتعل الخوف في عيني رايتشل: «لا! لا يمكنك! لا يجدر بك!».

أجابها فيتو، وقد ثبتتها عيناه على الأرض، فقال: «لكنني أستطيع أن أفعل ذلك، وسوف أفعل».

قامت رايتشل بحركة متشنجة مهتزة بقوة بيدها، فقالت: «لا... أرجوك! أرجوك لا تفعل!».

إنه كابوس حقيقي. أن يظهر فيتو في المستشفى الآن... وقد يصل إلى غرفة والدتها... يجدر بها أن تتصل بالمستشفى على الفور، فتخبرهم أنه لو جاء فيتو عليهم منعه من الدخول، وإبعاده من هناك. يجب ألاّ... يجب ألاّ يسمح له بالاقتراب من والدتها أبداً!

راقب فيتو الخوف يتلاعب على وجه رايتشل، فأحس بالسخط يقرع في داخله. أغضبه يأسها الشديد في محاولتها أن تمنعه من اكتشاف هوية عشيقها هذا. إنها الآن متزوجة... متزوجة منه. لا شأن لها... لا شأن لعينٍ لها بأن تذهب لزيارة رجل أخر... عشيق آخر. بدا كأن الغضب الشديد يستنزفه. أمسك الباب بقوة ففتحه.

- سوف نذهب الآن... الآن بالذات!

- لا! أنا لن أذهب.

- إذاً سوف أذهب بمفردي!

- سوف أتصل بالمستشفى، وأطلب منهم ألاّ يسمحوا لك بالدخول!

تجمدّت على وجه فيتو ابتسامة متوحشة فقال: «لن تتصلي بأحد. سوف أطلب من رجل الأمن الخاص بي أن يبقى برفقتك فيما أقود سيارتي نحو هامبستيد».

انشدّت عينا رايتشل إلى الأمام، وظهر اليأس والهستيريا في صوتها حين قالت: «لا! لا تستطيع. لا يمكنك أن تذهب إلى المستشفى. لا

www.elromancia.com

يمكنك أن تقابلها. لن أسمح بذلك... لن أسمح بذلك!».

حدّق فيتو إلى رايتشل، ممسكاً بالباب مفتوحاً. إنها تقول شيئاً ما... شيئاً غير منطقي.

- لن أسمح لك أن تراها أبداً... أبداً!

انعقد حاجبا فيتو سوياً. ما الذي تتحدث عنه؟ عمن تراها تتحدث؟

سيطرت الهستيريا على صوت رايتشل. إنه ليس أصم كي لا يسمع هذه النبرة المرتجفة. طالبها بحدة قائلاً: «من؟».

بدت عينها مشرقتين، مشتعلتين، محمومتين، يائستين: «والدتي!».

انطلقت الكلمات من فم رايتشل. هي لم تقصد أن تسمح لها بالخروج. لم تكن تقصد أبداً أن تسمح لفيتو فارنيستي أن يعلم من هو الشخص الذي تزوره في المستشفى. لكن لو فعل فيتو ما هدد بأن يفعله، فظهر في المستشفى بكل بساطة قائلاً لهم إنه زوجها من دون أن تتمكن هي من تحذيرهم، فهم سيسمحون له بالدخول. هي تعلم أنهم سيفعلون. إنه رجل ثري، قوي، مقنع... وهو قادر على تخطي أي امرأة على مكتب الاستقبال في العالم.

راح فيتو يحدق برايتشل، ثم فجأة صفق الباب فأغلقه واتجه نحوها. ظهر الاتهام في صوته وهو يقول لها: «والدتك؟ أخبرتني أنها مسافرة خارج البلاد! إذاً، ما الذي تفعله في المستشفى؟ هل تقوم بعملية تجميل لشد الوجه؟ أتحاول التخلص من كبر السن؟».

تنفست رايتشل فيما بدت عيناها مضيئتين محمومتين، وقالت: «لا. إنها تعاني من مرض السرطان».

التهبت عيناها الموجهتان نحو فيتو. إنها تكرهه! تكرهه كثيراً. إنها تكره العالم بأسره... الكون كله. راقبت رايتشل الدماء تفور في وجه فيتو.

- السرطان؟!

بدا كأن هناك خطباً ما بصوته. عيناه لم تفارقانها، لكنها استطاعت

أن تلحظ أنه كان يدور في دوامة ذهنية.

- منذ... منذ متى هي... مريضة؟

لِمَ يسألها؟ ما الذي يهمه في ذلك؟

- منذ فترة طويلة بما يكفي. لكن لا تقلق فيتو... لن يطول الأمر كثيراً بعد. يريدون إخراجها من المستشفى ليدخلوها إلى دار للعناية بالمرضى أمثالها. حيث يمكنها...

أطبق حلق رايتشل على الكلمات، لكن كان عليها أن تقولها، فتابعت: «... حيث يمكنها أن تموت».

ظهر شعاع ما في عينيها. رمشت رايتشل، لكن رؤيتها لم تنجلِ. رفضت أن تنجلي. حاولت أن تتكلم مجدداً، لكن حلقها أطبق. أطبق كلياً. لاحظت من خلال عينيها المغشيتين أن فيتو مدّ إحدى يديه إلى الباب، فاستند إليه. كما لو أنه فجأة لم يعد يقوى على تثبيت نفسه.

- آرلين تحتضر؟

انتظرت رايتشل الازدراء... لكن فيتو لم يقل شيئاً. لا شيء باستثناء تلك النظرة التي تدل على الصدمة الكاملة في وجهه وعينيه.

رمشت رايتشل مجدداً. استطاعت أن تشعر بالدموع المؤلمة الساخنة تملأ عينيها. حاولت أن تمسحها. لا! لن تبكي على والدتها أمام فيتو الذي يمقتها، ولطالما مقتها منذ أن قربها والده منه وأصبحت منافسة لوالدته. أدارت وجهها بعيداً بحركة خرقاء متعثرة. اندفعت إلى الأمام محاولة إيقاف النشيج الذي يسد حلقها، أحست بركبتيها تضعفان، فتعلقت بحافة الطاولة، وغرقت في الكرسي الذي كانت تجلس عليه، فهي لم تعد تقوى على الوقوف.

جرحتها التنهدات الخشنة الممزقة، فانحنى رأسها واهتزت كتفاها. بدا حزنها شاملاً. راقب فيتو اهتزاز جسدها ورأسها المنحني، وسمع الصوت الممزق الذي تصدره. بحركة منتفضة خطا إلى الأمام نحوها. توقف، ثم ضغط بيده على كتفها.

- رايتشل...!

لم يعلم فيتو ما الذي يجدر به أن يقوله أو أن يفعله. فالصدمة ما تزال تجوب في داخله، تهزه، وتطلق موجات الصدمة في كيانه. آرلين غراهام تحتضر. إنها المرأة التي عذّبت حياة والدته إلى يوم ممات والده، أما ابنتها فتتحطم بسبب ذلك. أطبقت عليه الصدمة مجدداً. هنالك شيء ما مدمر يشعر به لدى رؤية رايتشل فايل تنهار على هذا الشكل. بدا كما لو أنها أصبحت شخصاً آخر أمام عينيه. أصبحت شخصاً مختلفاً تماماً، لا يعرف كيف يتفاعل معه. كرّر فيتو اسمها مجدداً، وأحس أنه عديم الحيلة...

لم تتوقف رايتشل عن البكاء، بل ازداد نشيجها، وأخذ يعذب جسدها بقوة أكبر. أحس فيتو بركبتيه تلتويان، فربض نزولاً إلى جانبها. كانت رايتشل تضع يديها في حضنها، فتلقيهما الواحدة فوق الأخرى بحركة متتالية. مدّ فيتو يديه وأمسك بيديها، ثم ضغط عليهما وثبتهما. تابعت رايتشل البكاء لفترة بدت طويلة جداً. أما فيتو فاستمر راكعاً إلى جانبها بينما غلف يديها بيديه.

بدأت التنهدات تتلاشى تدريجياً، فلم يبقَ لدى رايتشل الكثير في داخلها. رفعت رايتشل ببطء رأسها المنحني. بدا وجهها ملطخاً بالدموع بينما أحيطت عيناها بهالتين حمراوين. في الواقع حفر الحزن خطوطه غير المتسامحة على ملامح وجهها كلها. تحرك رأسها نحو فيتو.

- لهذا السبب جعلتك تتزوج بي.

رنمت رايتشل الكلمات بصوت خافت خال من التعابير، تابعت قائلة: «لأجلها... لكي أسعدها. إنها تعتقد...».

غصّ صوتها، ثم تابعت: «هي تعتقد أنك تزوجتني فعلاً، وأن زواجنا ليس مجرد قطعة من الورق، بل زواج حقيقي. بعد كل هذه السنوات اقتنعت أن ابنتها أصبحت عروساً حقيقية لآل فارنيستي.

صدقت أنني عروس حظيت بنهاية سعيدة كما في القصص الخيالية».

تغيرت نبرة صوتها، ومع أنها بقيت خافتة، لكنها حملت عنفاً هز كيان فيتو، عندما تابعت: «إن فعلت أي شيء يظهر لها أن هذا الزواج كذبة مزيفة، سوف أقتلك. أقسم بالله إنني سوف أقتلك!».

تابعت فيما بقيت النظرة الفارغة في عينيها: «في البداية أردت فقط أن أزيف القصة بأسرها فأدّعي أنك تزوجتني، لكنني فكرت بالصدمة التي ستصيبها لو لم أستطع أن أبرز لها وثيقة الزواج، ولو اكتشفت أنني أكذب عليها وألفق الأمر برمته. لهذا السبب اضطررت إلى جعل الأمر واقعياً... واقعياً بنظر القانون. لكي أستطيع أن أنظر إلى عينيها مباشرة، وأقسم لها إنني فعلاً أصبحت السينيورا فارنيستي. وأظهر لها الاثبات القانوني على ذلك، وأقسم لها إنك أنت من وضع الخاتم في إصبعي. فأريها الصور الفوترغرافية حيث أرتدي أنا زمردات فارنيستي، لأنني عروس حقيقية لآل فارنيستي، تماماً كما حلمت على الدوام. كان علي أن أحصل على زواج حقيقي، أما الأسلوب الوحيد فهو أن أعرض عليك استعادة الزمردات».

توقفت رايتشل عن الكلام فاستنشقت النفس ببطء.

- هذا ما فعلته، ولست نادمة عليه مطلقاً.

انزلقت عيناها بعيداً عنه، باتجاه سطح الطاولة ثم نحو حضنها. فرأت يديه المضمومتين حول يديها، كما لو أنه يحاول أن يريحها. هزت رايتشل يديها بحركة مفاجئة، فأبعدتهما. ثم دفعت بنفسها ووقفت على قدميها. للحظة ترنحّت، ثم تجمدت في مكانها. أحست أنها مستنزفة تماماً. فركت عينيها، فأحست أنهما تحرقانها وأنهما متورمتان. استدارت ومشت نحو المطبخ الملاصق للغرفة، فغسلت وجهها، ثم نشفته بمنشفة صغيرة. أحست أنها بحاجة إلى كوب من الشاي ليهدئها. مدّت يدها فتناولت الإبريق المعطوب، وأخذت تملؤه، لكنه سرعان ما أُخذ منها ووُضع على لوح تجفيف الأطباق

وأطبقت يد فيتو على مرفقها.

- رايتشل...!

إنه فيتو! رمشت رايتشل. يجدر بها أن تشعر بشيء ما حياله، حتماً. المقت... التوق... إنها الأحاسيس المعتادة التي تشعر بها تجاهه، لكنها في هذه اللحظة بالذات لم تشعر بأي منها. تساءلت لِما لا تشعر بأي شيء. تساءلت أيضاً لما قادها فيتو ببطء لكن بعناد باتجاه الأريكة المرتخية التي تنفتح مساء لتصير سريراً. جلس فيتو على الأريكة، فجلست رايتشل بدورها أيضاً.

- نحن بحاجة لأن نتكلم.

ما زال فيتو يستطيع أن يشعر بالصدمات المتلاحقة تتموج عبر جسده. الآن وضع جانباً ردّة فعله تجاه خبر احتضار آرلين غراهام. سوف يعالج ذلك الأمر لاحقاً. الآن بالذات هو فقط يحاول أن يتعامل مع رايتشل. بمقدوره أن يلاحظ أنها تخطت مرحلة الصدمة. إنها تجلس جامدة تماماً، وقد شدّت ركبتيها سوياً، بينما ألقت ساعديها على فخذيها وقد أطبقت يديها سوياً، فيما راحت تنظر أمامها بنظرات فارغة.

عبس فيتو. لِمَ تراها تعيش هنا في هذا المكان البالي، على أي حال؟ آرلين موجودة في مستشفى باهظ التكاليف، إذاً هي تملك المال، بالطبع. مهما كان المبلغ الذي تمكنت من تكديسه خلال مرافقتها لوالده، فلا بد أن يكون ذا شأن. سمع نفسه ينطق السؤال بصوت مرتفع، ثم تساءل لماذا فعل ذلك.

أجابته رايتشل من دون أن يظهر عليها أي انفعال: «بعت شقتي لكي أؤمن العلاج لوالدتي. أردت أن أكون واثقة تماماً من أنه سيكون لدي المال الكافي حتى... حتى أراها تجتاز الأمر كله. لم يبقَ لديها الكثير من مالها الخاص، وعلمت أنني لا أستطيع أبداً أن أبيع الزمردات، بالرغم من أنها منحتني حق التصرف بكل شؤونها. كنت

أنوي أن أعيدها لـ... لوالدتك. إنها تخصها».

زفرت رايتشل نفساً مرتعشاً: «لكن في النهاية...».

استنشقت نفساً آخر، تبعه شهيق موجز، وتابعت: «في النهاية اضطررت إلى استخدامها. كانت ذخيرتي الوحيدة، تماماً كما قلت لي بوضوح عندما ذهبت لمقابلتك في مكتبك».

وجهت رايتشل نظراتها الخالية من التعابير نحوه: «أنا آسفة لأنني أجبرتك على الزواج بي لكي تستعيدها، فيتو. فتلك كانت الطريقة الوحيدة كي أحقق أمنية والدتي المحتضرة. اضطررت إلى القيام بذلك. لكنك استعدت الزمردات الآن، ويمكنك أن تعيدها إلى والدتك، ثم تطلقني. اعتبر كأن الأمر لم يحصل على الإطلاق».

راقبته رايتشل وهو ينهض على قدميه. فأحست بشيء ما بدأ يجوب في داخلها. إحساس رقيق جداً، دقيق جداً.

مدّ فيتو يده نزولاً فقبض على مرفقها وجذبها لتقف، ثم قال بهدوء: «أحضري أغراضك. نحن ذاهبان».

نظرت رايتشل إليه من دون أن تفهم، وقد التهب الخوف المفاجئ في داخلها.

- أنا لن أذهب إلى المستشفى! لن تقابل والدتي! لن أسمح بذلك! أنا...

قاطعها فيتو قائلاً: «سوف نذهب إلى شقتي».

حدّقت رايتشل به من دون أن تفهم شيئاً.

- أريدك أن تخرجي من هذا المكان الحقير. ما زلنا بحاجة لأن نتكلم، لكن ليس هنا.

١٠ ــ أشرقت شمس الحقيقة

ذهبت رايتشل منقادة بسهولة مع فيتو. لم تعلم لما فعلت ذلك. ما من سبب يدعوها إلى ذلك، لكن هذا ما فعلته على أي حال. سمحت له أن يقودها إلى الطابق السفلي، ثم إلى الخارج نحو سيارته الفضية الضخمة المتوقفة عند المنعطف. فتح الباب لجهة المقعد المجاور للسائق، فدخلت رايتشل بوداعة، وهي لا تشعر بأي شيء. اتجه فيتو غرباً عبر لندن فقاد عبر زحمة السير باتجاه شيسويك. ليدخل مبنى فارنيستي الصناعي. لم ينطق أثناء ذلك بأي كلمة، بل ركّز على القيادة فقط.

جلست رايتشل إلى جانبه وهي تضع يديها في حضنها، فقفزت إلى ذهنها ذكرى قديمة... عندما قاد بها فيتو سيارته الرائعة في أرجاء روما... لم تتمكن من النظر إليه، بل حدّقت أمامها فقط فيما بدت عيناها كئيبتين لا تريان. شعرت بالغرابة وهي تعود إلى داخل مبنى فارنيستي.

كاد المكان يكون مهجوراً في هذا الوقت من المساء. أومأ فيتو ببساطة إلى الحارس عند مكتب الاستقبال، فعبر تجاه مصعده الخاص الموجود في الجانب البعيد من البهو. أقلهما المصعد صعوداً بهدوء وسرعة. أحست رايتشل مجدداً كما لو أن الزمن يعود إلى الوراء. لكن هذه المرة لم ينفتح البابان على الطابق الإداري الذي أخذتها إليه السيدة والترز. هذه المرة خطت رايتشل نحو ما يبدو أنه بهو خاص.

- من هنا.

دخلت رايتشل وهي تنظر حولها بصمت. بدت الشقة فخمة، تغطي أرضها سجادة ناعمة من اللون اللؤلؤي الرمادي،

- هل تحبين أن تغتسلي لتتعشي؟

لم تبدُ في صوت فيتو أي نبرة تتجاوز اللباقة، وهذا الأمر بحد ذاته غريب بما فيه الكفاية. أومأت رايتشل إيجاباً. دلّها فيتو على حمام مخصص للضيوف في آخر الرواق، وتركها لتهتم بالأمر. بدا الحمام فخماً تماماً كالبهو، فهو مصنوع من الرخام الأبيض. نظرت رايتشل إلى انعكاس صورتها في المرآة. كانت عيناها ما تزالان ملطختين ومحمرتين، أما وجهها فبدا ذابلاً. غسلت وجهها بالماء والصابون، ثم أخذت لحظة من الوقت كي ترطب بشرتها مستخدمة عدة السفر الموجودة في حقيبتها.

ما الذي أفعله هنا؟ لماذا جئت؟

جال هذان السؤالان في ذهنها كالدوامة، لكنها لم تجد جواباً. خرجت من الحمام وعادت إلى الصالة. كان فيتو هناك يقف بالقرب من خزانة المشروبات المفتوحة، سكب كوباً من عصير الليمون المنعش، ثم ناولها إياه.

- اشربيه! أنت بحاجة إليه.

تناولت رايتشل الكوب بأنامل مرتخية، ثم جلست على إحدى الأرائك الضخمة.

- طلبت العشاء. أنتِ بحاجة لأن تأكلي.

قاطع صوت فيتو سنوات من الذكريات. رمشت رايتشل بعينيها مجبرة نفسها أن تعود إلى الحاضر. ردّت: «أنا لست جائعة».

لكن عندما وصل الطعام فوجئت رايتشل أنها جائعة فعلاً. لم تجد صعوبة في تناول الطعام الشهي. تناولا الطعام بصمت، فيما ظلت رايتشل تشعر بالغرابة الشديدة.

أخيراً أنهت عشاءها وجلست في مكانها وهي تضع يديها في

حضنها كما لو أنها طفلة تنتظر أن ترفع الأطباق من أمامها، ليقال لها إنها تستطيع المغادرة.

- القهوة في الصالة.

أعلن فيتو ذلك، أما رايتشل فلم تكن واثقة إن كان يخبرها هي أم يخبر موظفي تقديم الطعام. لكنها انسلت عن كرسيها مطيعة، وتوجهت خارج غرفة الطعام، فجلست منقادة على الأريكة الرمادية الضخمة مجدداً. ظهرت صينية تحمل قهوة ذات رائحة قوية، عليها طبق فضي فيه حبات من الشوكولا البيضاء. تناولت رايتشل إحدى تلك الحبات من غير وعي.

- الكريما؟

نظرت إلى فيتو، الذي وضع كوباً كبيراً من القهوة أمامها. كان فيتو يراقبها وهي تقضم حبة الشوكولا. لم تظهر أي تعابير على وجهه، لكن ظهر التوتر على فكه. لاحظت رايتشل ذلك، فتساءلت عن السبب. حمل فيتو قهوته ثم عبر نحو الأريكة التي تجلس عليها رايتشل، وجلس على الطرف البعيد منها. راقبته بحذر وهو يرتشف ملء فمه من القهوة، ثم يضع الكوب جانباً بنوع من التصميم.

- لماذا لم تخبريني عن مرض والدتك عندما جئت إلى مكتبي الأسبوع الفائت؟

توقفت رايتشل عن رفع كوب القهوة إلى فمها، وحدقت به غير مصدقة. لم تجبه على الفور، ولم تعلم لِما طرح ذاك السؤال الذي يبدو جوابه واضحاً جداً.

- كان ذلك هو آخر شيء أرغب في أن تعرفه أنت.

تصلب وجه رايتشل، وتابعت: «لست آبه لما تظنه بي، فيتو. فكرت بأسوأ الأمور عني منذ أول مرة وقعت فيها عيناك علي. هل تظنني نسيت أبداً الكلمات الأولى التي قلتها لي على الإطلاق؟».

بدا صوتها كئيباً، فيما ظهر احمرار خفيف على خدي فيتو.

- كنت غاضباً جداً ذاك اليوم. فوالدتي تعرّضت إلى نوبة أخرى من نوباتها، وبالرغم من ذلك أصرّ والدي على البقاء على الشاطئ مع... مع آرلين. لا شيء مما قلته أمكنه أن يقنعه ليعود إلى تورين.

أشاحت رايتشل بنظرها بعيداً. أرادت أن تشعر بالحذر مجدداً، فالأمر أسهل كثيراً على ذاك النحو. عاد فيتو ليقول أمراً مختلفاً، وما قاله الآن جعلها تحرك رأسها فتلتفت نحوه مجدداً، وقد ارتسمت التعابير غير المصدقة نفسها على وجهها.

- ألهذا السبب وافقت على التخطيط مع والدتك كي تأسريني فتجبريني على الزواج بك عندما كنت في الثامنة عشرة من عمرك؟ ألكي تنتقمي مني على ما قلته لك ذاك اليوم؟

بدا صوته مشدوداً، فيما ظهرت نظرة حذرة في عينيه. فكرت رايتشل ضجرة، ها نحن نبدأ من جديد! إنه يلوي الحقيقة مرة ثانية.

ردت بصوت مشدود: «أجرينا هذا الحديث من قبل فيتو، ولم يصل بنا إلى أي مكان. على أي حال، ما من مكان سنصل إليه نحن الاثنان باستثناء محكمة الطلاق. هذا كل شيء... بأسرع وقت ممكن، وبأقل ألم ممكن».

سيطرت على وجه فيتو نظرة مطبقة، وقال: «أنا لا أريد أن أطلقك».

فحدقت به مذهولة: «ماذا؟».

استقرت عيناه عليها، وظهر فيهما شيء سرّع الدماء في عروقها. فجأة أدركت رايتشل كم هي قريبة منه، إنها قريبة جداً من فيتو فارنيستي. قالت بصوت خافت: «أنا... أنا لا أفهم».

ارتسمت على وجه فيتو نظرة لم تقوَ على قراءتها.

- ألا تفهمين؟ إذاً دعيني أريك.

انحنى فيتو قليلاً إلى الأمام، فتناول كوب القهوة من يدها، ووضعه على الطاولة. بالرشاقة نفسها انزلقت يده حول عنق رايتشل ولم يعد

أمام رايتشل سوى لحظة أو أقل ربما، حتى تدرك نواياه. لكن الأوان فات على ذلك. أحنى فيتو وجهه نحوها، وسرعان ما ضمتها ذراعاه إليه بشوق، وعانقها...

جاشت الدماء في عروق رايتشل، وأغرقتها... أغرقت كل شيء... أحاسيسها، منطقها، ومقاومتها. أحست بالحرارة تلتهب كالشعلة في داخلها. حرارة حامية، ملحة لا تقاوم. بعدئذٍ اختفى كل شيء. لم يعد هنالك وجود لأي شيء سوى فيتو. سمعت صوتاً صادراً من أعماق حنجرتها وهي تطلق أنّه خافتة عاجزة، وبدا أن ذلك زاد من اشتعال فيتو واتقاده. كانت عينا رايتشل مغمضتين بحزم، فلم يعد هنالك من وجود لأي شيء بالنسبة إليها سوى الأحاسيس... الأحاسيس القوية المطلقة، التي أثارها فيتو فيها.

آه، يا إلهي! إنها تشعر بالانجذاب نحوه بقوة. لا! بحق الله، لا يجدر بها أن تسمح بحصول هذا!

دفعته رايتشل بعيداً عنها. لا يمكنها... لايمكنها أن تكون حمقاء إلى هذه الدرجة من جديد!

- لا! فيتو، أرجوك...! أرجوك لا تفعل بي هذا مجدداً! أنت تعلم أنني كذبت عليك. قلت لك إنني لا أرغب بك. كان علي أن أقول لك ذلك... كان علي أن أفعل... ما كان بمقدوري أن أفعل غير ذلك. أجبرك على الزواج بي كما فعلت، ثم أجعلك تظن أنني أريدك! أنت تعلم أنني عاجزة عن صدّك. لست بحاجة لأن تثبت لي ذلك فقط كي تهينني وتذلني مجدداً. كرهت الكلمات التي استخدمتها لوصفي طيلة السنوات الماضية، لكنني أعلم -ولطالما علمت- أنني غير قادرة على إنكارها. لربما كانت كلمات قبيحة، لكنها صحيحة. يا إلهي! إنها صحيحة. أنا أتوق إليك، تماماً كما قلت. أردتك أن تعانقني بكل يأس. لطالما ابتدعت أحلاماً تتعلق بك... أحلاماً غبية طفولية. جعلتك في مخيلتي الأمير الفاتن، فتختارني بشكل ساحر

لأكون سندريلا، وتجول بي في أرجاء روما كما لو كنت في وسط نوع من الروايات الخرافية الرومنسية. لم أدرك أنني كنت غبية إلى حد لا يصدق إلا عندما واجهتني أمي بالحقيقة القاسية. ليتني لم أكن بهذاالغباء، لتمكنت عندها أن أرى ما كنت تحاول أن تفعله. كنت لأدرك أنك تستخدمني لكي تؤذي آرلين، وما كنت سأقع كاللعبة بين يديك. لقد أخبرتني... كم أنا غبية لاعتقادي أن رجلاً مثلك قد يهتم بفتاة إنكليزية صغيرة مملّة مثلي، في حين أن هناك صفاً طويلاً من عارضات الأزياء اللواتي يتهافتن عليك.

تجمد فيتو في مكانه تماماً. بعدئذٍ سألها بصوت غريب: «أهذا ما قالته لك آرلين؟».

أجابته رايتشل بمرارة: «إنه أمر مثير للشفقة، أليس كذلك؟ أنت كنت مقنعاً جداً، رائعاً جداً، جذاباً جداً، وأنا فعلاً كنت غبية جداً وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وما زلت غبية... ضعيفة وغبية، لكنني على الأقل أعرف أنني كذلك. على الأقل أنا أدرك الآن أنك كنت تسخر مني عندما توددت إلي. لماذا برأيك قلت لك إنني أريد زواجاً خالياً من العلاقات الحميمة؟».

سألت رايتشل ذلك بكآبة، ثم تابعت كلامها قائلة: «كنت أحاول أن أحمي عزة نفسي... عزة النفس فقط. مثلما فعلت عندما كنا على جزيرة سان بيير. حسناً! أصبحت تعرف هذا الآن، لذا يمكنك أن تدعني وشأني. أرجوك دعني وشأني...».

نظر فيتو إليها وبدت تعابير وجهه غامضة، ثم فجأة مشى نحو منضدة قريبة. سمعت رايتشل قرقعة الزجاج، ثم صوت انسكاب الماء. استدار ليواجهها مجدداً بعد أن تناول جرعة كبيرة من الماء.

- هل تعرفين لماذا تزوجتك؟

جاء سؤاله من العدم، وبدا كأنه غير منطقي. تابع فيتو كلامه فيما بدا صوته خشناً: «هل تظنين أن السبب هو الزمردات؟ أتظنين ذلك؟ كنت

أفضل رؤيتك في الجحيم قبل أن استعيدها بناء على تلك الشروط. لا أحد يمكنه التلاعب بي... لا أحد! تزوجتك فقط وبكل بساطة حتى أحصل عليك في السرير. لأنك اشترطت زواجاً خالياً من العلاقات الحميمة. وقفت هناك في زيك الأنيق، وأنت تبدين باردة كالجليد، فقلتِ لي إن مواهبي في السرير ليست مطلوبة خلال هذه الفترة!».

شعرت رايتشل بقلبها يتخبط ببطء وثقل. قالت بصوت خافت: «لذلك نلت انتقامك ليلة زفافنا».

تناول فيتو جرعة أخرى من الماء، ثم أنزل الكوب. بعدئذٍ تكلم وقد بدا صوته غريباً جداً بالنسبة إليها إذ قال: «لا. بل أنتِ فعلتِ».

حدّقت رايتشل به مذهولة.

- أنا لست أفهم...

أطلق فيتو ضحكة متوحشة مفاجئة فقال: «لا! أنت لا تفهمين، أليس كذلك رايتشل؟ يبدو كأنك لا تفهمين أي شيء، والآن أصبحت أعرف السبب. لأن والدتك أنبتك تأنيباً عنيفاً عندما كنت في الثامنة عشرة من عمرك».

وضع كوب الماء على المنضدة وبدأ يسير نحوها مجدداً.

- أخبرتني مرتين الآن أنك لم تتواطئي مع أمك عندما كنتِ في روما معي، وأنكما لم تخططا للأمر بأسره سوياً. أنا لم أصدقك من قبل، لكنني الآن أصدقك.

- حسناً! ذلك أمر عظيم من قبلك، فيتو! ذلك عظيم جداً من قبلك! إذاً أنت تقر أخيراً أنك تصرفت بدناءة تماماً معي منذ سبع سنوات، وأنك تعمدت أن تبحث عني، فعرفت من أنا عندما التقيتني في الحفلة، فجذبتني وطرت بي. تذكر أنني كنت فقط فتاة إنكليزية غبية، عديمة الخبرة، سهلة الانقياد وسريعة التأثر في الثامنة عشرة من عمري. لا بد أنني كنت ضغطاً حقيقياً بالنسبة إليك، أما أنت فأغويتني

متعمداً لكي تتمكن من إيذاء والدتي!

- لا... لا! أنا لا أقر بذلك.

كان فيتو ما يزال يتجه نحو رايتشل بخطى طويلة ثابتة، وفجأة انتفضت رايتشل فنهضت على قدميها وتراجعت إلى الوراء، فاستدارت حول طاولة القهوة المنخفضة.

- ألا تقر بأن الأمر تطلب رجلاً سافلاً تماماً حتى يقول لوالدتي إنني كنت أتوسل وأتحرق شوقاً لكي تعانقني؟

- يومها ظننت أنكما أوقعتماني في الفخ، فشعرت بالغضب الشديد.

- أتعني أنك شعرت بالغضب لأنها تجرأت على اتهامك بأنك أغويتني؟ ألم تتعمد أن تغويني فقط لكي تنتقم منها؟

هزّ فيتو رأسه نفياً، أما تقدمه فلم يتباطأ قط. تعثرت رايتشل وهي تتراجع إلى الوراء، فأحست ببابي الصالة المغلقين يوقفان انسحابهما.

- لا. لم يكن ذاك السبب الذي دفعني إلى إغوائك.

ضغط عمودها الفقري على الباب بقوة. وصل فيتو إليها ووقف أمامها مباشرة، فصد كل محاولات هروبها. كان فيتو قريباً جداً منها... قريباً جداً جداً. مدّ يديه على جانبي رأسها فأسرها. أدارت رايتشل رأسها إلى أحد الجانبين وقد أصابها الهلع، ثم عادت ونظرت إليه. بادلها فيتو النظر، فيما ظهر شيء ما في عينيه. شيء جعل أنفاسها تنقبض، ورجليها ترتخيان.

- تابعي التفكير.

قال لها ذلك فيما ظهرت تلك النظرة الغريبة نفسها في عينيه. قال لرايتشل: «هنالك تفسيران محتملان فقط لما حصل منذ سبع سنوات في روما: إما أنني أوقعتك، أو إنك أنت من أوقعني. أي أن أحدنا هو الخبيث، أما الأخر فهو الغبي».

- حسناً! لم أكن أنا التي نصبت لك فخاً، فيتو. لذا لم يبقَ غيرك

أنت الذي نصبت لي الفخ!

- لا! هنالك تفسير آخر، وهو التفسير الصحيح. أعلم هذا الآن.

بحثت عيناه في وجهها، ثم تابع قائلاً: «مساء أحد الأيام منذ سبع سنوات، ذهبت إلى حفلة بعد أن كنت قد تخلصت للتو من إحدى صديقاتي الحميمات اللواتي كن قد بدأن يسببن لي الضجر وفيما كنت في الحفلة قابلت فتاة لا تشبه فتاة أخرى عرفتها على الإطلاق. سلبت تلك الفتاة لبي. كانت شابة... صغيرة جداً، بريئة جداً. لم تكن من الصنف المفضل لدي. لم تكن من صنفي المفضل على الإطلاق. لطالما أحببت النساء المتميزات الأنيقات الجذابات اللواتي يعرضن قوامهن الجميل ويتباهين به، كما يعلمن أنهنّ شديدات الجاذبية ومثيرات للاعجاب. النساء اللواتي يسقطن في سريري بسهولة ويعلمن تماماً متى يجدر بهن أن يخرجن من حياتي بعد أن أسأم منهن. لكن الفتاة التي قابلتها في الحفلة ذاك المساء لم تكن مثلهن على الإطلاق».

توقف فيتو، فيما ظهرت في عينيه تعابير غريبة، كما لو أنه يرى بغموض عبر أروقة الزمن.

- كانت فتاة بريئة. استطعت أن أدرك ذلك على الفور. أما الصديقتان اللتان كانتا برفقتها فلم تكونا كذلك. استطعت أن أدرك ذلك أيضاً. علمت أنه يجدر بي فعلاً أن أدعها وشأنها، لكنني لم أقدر على ذلك، ولم أرغب بذلك. أردت أن أذهب إليها، وأن أتكلم معها، وأن أبتعد بها عن الحفلة التي لا تناسبها. أردت أن أحصل عليها لنفسي، لكن ليس من أجل إقامة علاقة حميمة معها. بالرغم من أنني كنت أتوق لذلك... كيف عساي لا أتوق؟ كانت الفتاة تتمتع بشعر محبوك كالذهب، وبأجمل وأصفى عينين رأيتهما يوماً. حدثتني عن مايكل أنجلو، وعن عصر النهضة، وعن الكتاب الإيطاليين وعن التاريخ الإيطالي. راحت تتكلم طيلة الوقت ولم تحاول أن تغازلني أبداً... ولا مرة. نظرت إلي فقط بتلك العينين الصافيتين الرماديتين

الجميلتين. أما شعرها فبدا كالشلال المتألق، أما وجهها... آه! وجهها... بدا كأنه لوحة لبوتيتشيللي. بعد أن جلت بها في أنحاء روما، لتشاهد المدينة في الليل، أعدتها إلى شقتها وودّعتها. وعلمت أنه لا يجدر بي أن أقابلها مجدداً.

استنشق فيتو نفساً، ثم تابع كلامه قائلاً: «لكن مع حلول الصباح لم أستطع تمالك نفسي، وشعرت أنني أريد رؤيتها من جديد، لذلك عدت إلى شقتها وخرجت برفقتها مجدداً. خرجنا معاً كل يوم، ولمدة اسبوعين. أخذتها لتشاهد روما وأوستيا ولازيو، أمضيت كل نهار برفقتها. تشربت عيناي من جمالها... تشربت كل جزء منه. شعرت أنني منجذب إليها كل يوم وكل ساعة، وراح شوقي إليها يزداد أكثر فأكثر. لم أجرؤ على ملامستها. علمت أنني لو فعلت، فلن أقدر على تركها أبداً. لكنها جعلت الأمر صعباً علي. كانت جميلة جداً، لطيفة جداً، نقية جداً. ولست أعني ذلك فقط بالمعنى الجسدي بل بالمعنى الروحي. أصبحت مفتوناً بها. أردت أن أطير بها إلى مكان بعيد لتكون لي وحدي. علمت في الليلة الأخيرة أنني ما عدت قادراً على مقاومتها، وذلك قبل أن تضطر للعودة إلى حياتها الحقيقية أما هي فكانت مليئة بالشغف. علمت أنها تريدني أن أعانقها. حاولت أن تخفي ذلك، لكنها لم تقدر. بدت خجولة جداً ومترددة جداً حيال رغبتها تلك، لكن ترددها تلاشى عندما عانقتها، عندما ضممتها بين ذراعي. بادلتني العناق بشوق وشغف. بدت آمنة بين ذراعي، وعلمت أنني لن أجد مثلها أبداً. بدا كأننا خلقنا لبعضنا. ذلك المساء شعرت أنني بمنتهى السعادة».

ارتخى شيء ما داخل رايتشل، فحين تكلم فيتو جاءت كلماته كالبلسم الشافي بالنسبة إليها.

- هل تعني ذلك، فيتو؟ أتعني ذلك حقاً؟ أهذا ما عنته علاقتنا بالنسبة إليك؟

جاء صوت رايتشل هامساً، متضرعاً.

- نعم... حتى سُلِبت مني كل أوهامي، وأدركت أن الفتاة الجميلة ذات العينين الرماديتين التي شغفت بها لم تكن أكثر من أداة طيعة بين يدي عشيقة والدي، التي قامت باستخدامها لأجل تحقيق مكائدها الخاصة.

تظللت عينا رايتشل، وصاحت: «لم تفعل. آه... يا إلهي! فيتو... أقسم أنها لم تكن تعرف أنني موجودة هناك... لم تكن تعرف حتى بوجودي في روما. لم أخبرها مطلقاً. علمت أنها ما كانت لتمنحني إذنها. قالت لي لاحقاً أنها كانت تخاف منك وأنك لربما فكرت أن من الممتع أن تغويني فقط لكي تنتقم منها!».

نظرت رايتشل إلى فيتو وقد ظهرت على وجهها تعابير متألمة.

- أعلم أنه كان يجدر بي أن أخبرك من أنا لحظة أدركت أنك لا تذكرني، لكنني لم أقوَ على ذلك. علمت أنك قد تكرهني تماماً كما كرهت والدتي. ما كنتَ لتدنو مني، وما كنت لأتحمّل أنا ذلك. بدا الأمر ساحراً جداً، رائعاً جداً عندما أخذتني وأمضيت وقتك معي. لم أقوَ على إفساد ذلك كله. بكل بساطة... لم أقدر!

نظر فيتو إلى رايتشل بكآبة، وقال: «ذلك صحيح! ما كنت لأبقى برفقتك لو عرفت من أنت. ذلك بالتحديد ما جعل غضبي ذلك اليوم عظيماً جداً. اكتشفت أنني كنت مخدوعاً طيلة الوقت».

توقف فيتو عن الكلام، ثم تابع: «طيلة الوقت كنتِ بالنسبة لي الفتاة الأجمل في العالم... فتاتي الجميلة. تلك الفتاة التي مددت لها ذراعي تلك الليلة. لم تكوني مطلقاً الفتاة الأخرى التي ظننتك عليها. أبداً! أما أن أعلم... أن أكتشف...».

ظهر شرخ ما في صوته وهو يتكلم، ثم تابع: «... أن أوهامي لم تكن أوهاماً في بالغ الأمر. وأنك أنت فعلاً... الشخص الذي ظننتك

عليه أولاً. آه. يا إلهي! لا تعلمين كم يعني لي ذلك! رايتشل...».

امتلأت عيناه السوداوان بالأحاسيس التي فاضت منهما، وأوقفت الأنفاس في حلق رايتشل. لامست يد فيتو خد رايتشل، فأحست هذه الأخيرة بتوق لأن تستند عليها، لكنها لم تجرؤ على ذلك.

كرّر فيتو اسمها مجدداً بنعومة، فقال: «رايتشل... يا فتاتي الجميلة، يا فتاتي الجميلة...».

بدا عناقه لها كما لو أنه يلامسها للمرة الأولى. في تلك اللحظة الحلوة الاستثنائية أحست رايتشل بشيء ما يتمزق ويقرقع، كما لو أن شيئاً قاسياً، فظاً وبشعاً قد انتزع من جسدها أخيراً، فأفلتها من قبضته القاسية. انهمرت الدموع من عينيها، فالتفت يداها حول فيتو ببطء... ببطء شديد، تمسكت به فقط كي تمسك به وهو يعانقها. أبعدها فيتو عنه بلطف، ثم تناول يدها وقال: «تعالي!».

تعلقت رايتشل بيده، فذهبت برفقته بتبعية عمياء. أدخلها إلى غرفة النوم، وهناك في ظلام الغرفة قادها نحو السرير، وألقاها بلطف عليه. انتشر شعرها كالوشاح فوق الوسائد، فانحنى فيتو فوقها ومسّد شعرها.

- يا فتاتي الجميلة!

تنهدت رايتشل: «فيتو...!».

تلفظها باسمه بدا بمثابة بلسم ونعمة وقوة شافية. انحنى فيتو من جديد ليعانقها قبل أن ينزلق إلى جانبها ليحقق الاتحاد الذي كان يتوق إليه.

أخيراً، وبعد مرور بعض الوقت استلقيا هادئين بين أحضان بعضهما البعض. وعاد الهدوء إليهما.

جاء صوت فيتو مرتعشاً عندما تكلم.

- كان يجدر بي أن أثق بك... أن أثق بنفسي. فالقلب لا يكذب... لا يمكنه أن يكذب. ما دار بيننا تلك الفترة كان حقيقياً! أما ما جاء بعد ذلك فكان كذبة.

نظر إلى عيني رايتشل بعينين متألمتين، ثم تابع: «لو لم تعودي إلي، لكي تعرضي علي الزمردات، لاستمرت الكذبة طيلة حياتنا».

تغيرت تعابير وجهه فجأة، وسألها: «لماذا حاولت جاهدة أن تتصلي بي بعد أن عدتِ إلى إنكلترا؟ وبعد الكلام الذي قلته لك، وبعد ما ظننت أنني فعلته بك؟».

جاء سؤاله هذا من العدم، فأحست رايتشل بنفسها تتوتر بين ذراعيه.

- حاولت أن تتصلي بي منذ سبع سنوات لكنني لم أسمح لك بذلك. لماذا؟ لماذا فعلتِ ذلك؟ بعد أن رفضتك بالكامل، أكنتِ تحاولين أن تقنعيني بأنه لم يكن لديك دور في ما حاولت أن أتهمك به؟ مع ذلك، لمَ تُراك تدافعين عن قضيتك أمامي إن كنت مقتنعة أنني أنا الشخص المذنب؟

لاحظ فيتو الخشية في عينيها وهو يتكلم. كما لاحظ التردد في الرد على سؤاله، فبدأت شظايا الشك تتلوى في ذهنه من جديد.

- كان ذلك منذ فترة طويلة جداً، فيتو. لا يهم الآن. حقاً لا يهم.

تقدمت الشكوك إلى الأمام، فغرست أشواكها في وعيه.

- لكن أخبريني... يا إلهي! رايتشل... اتصلتِ بي يوماً بعد يوم، وأنا رفضت أن أتكلم معك على الإطلاق! حتى عندما تمكنت من الوصول إلي أقفلت الخط بوجهك. لماذا تابعتِ الاتصال؟ تعذبني حقيقة أنك كنت قريبة جداً مني، وأنا صدّيتك! لعلنا كنا تصالحنا لو أنك أقنعتني ببراءتك! أهذا ما حاولت فعله؟

غشيت عينا رايتشل. هل سحبت نفسها بعيداً عنه قليلاً؟ لم يكن فيتو متأكداً لكن برود ما تسرب إلى كيانه. إنها تخفي أمراً ما. الآن بالتحديد وقد ظن أنه سحب كل السم من بينهما، وبأن الدرب بينهما أصبحت صافية ونظيفة. حمل صوته حدّة ما وهو يقول: «أخبريني!».

تصلب وجه رايتشل، وهذه المرة سحبت نفسها بعيداً عن فيتو،

فشدّت عكس حلقة ذراعيه. لكن فيتو أحكم قبضته عليها بشكل فطري.

- أخبريني!

ترددت رايتشل للحظة ثانية، وازدادت نظرة الخشية في عينيها عمقاً.

- أنا... أنا أردت أن استدين المال منك، فيتو.

سقطت الكلمات من فم رايتشل، فكاد لا يصدقها.

- ماذا؟

أجفلت رايتشل فتابعت: «كنت بحاجة إلى المال. كنت... مضطرة... لأن أختفي. لم أقدر أن أقصد والدتي لأجل المال، ولم يكن لدي مال خاص بي. لذا... لذا قصدتك أنت، لأنك ثري...».

بدت رايتشل مجفلة مجدداً، وبالرغم من أن الأمر آلمه، لكنه استطاع أن يشعر بالغضب يتفاقم في داخله، الغضب والشك.

بدا صوت رايتشل مسطحاً وهي تقول: «أنا... ظننت أنك سوف تفهمني».

جاء صوت فيتو قاسياً وهو يقول: «ماذا؟».

- أرجوك! أرجوك لا تسألني، فيتو! حصل الأمر منذ زمن بعيد. انتهى ذلك كله الآن!

شدّت رايتشل نفسها بعيداً عنه مجدداً. لكن فيتو ضغط بيديه على ظهرها، فأمسكها.

- هل مازلت تسخرين مني حتى الآن؟ أخبريني!

وأخبرته رايتشل....

- أردت أن أبتعد عن والدتي فلا تعرف لي طريقاً. ظننتك قد ترغب بأن تقرضني المال الكافي لكي أختفي... لكي أرتب أموري فقط حتى استطيع أن أستقر... أو أن أحصل على وظيفة... لكي أصبح مستقلة مادياً. ظننت أنك قد ترغب بأن تساعدني، ظننت أنني

لو ابتعدت عن والدتي فهي لن تزعجك بشأني من جديد... أي أنها لن تحاول أن تجعلك تتزوجني في حين أنك لا تريد ذلك... ظننتك قد ترغب بإقراضي المال لكي تتخلص مني، لكي تحرص على إبعادي عن طريقك إلى الأبد. لكن في النهاية لم يعد الأمر هاماً فقد وجدت عملاً، لذا لم أعد بحاجة إلى المال. حصلت على وظيفة، وبدأت ارتاد جامعة مسائية عوضاً عن ذلك...

بدأت رايتشل تتكلم مجدداً، وما أن سمع فيتو كلماتها حتى طاف الماء المثلج خلال جسده.

- أنا آسفة! أنا آسفة، فيتو! علمت أنك قد تغضب لأنني قصدتك بهدف اقتراض المال. علمت أنك قد تظنني أحاول ابتزازك، لكنني أقسم أنني لم أقصد ذلك. أقسم! أنا فقط كنت بحاجة إلى ما يكفي كي... أرتب أموري. لكي أستطيع أن أختفي.

تختفي...!

كدّرته هذه الكلمة، فارتخت يداه الموضوعتان حول خصرها. جذبت رايتشل نفسها بعيداً عنه وخرجت من السرير. بدت حركاتها غير متوازنة ويصعب السيطرة عليها.

فكر فيتو، لا بد أنها كانت محبطة، مفلسة، ويائسة بما فيه الكفاية لكي تجبر نفسها على الاستمرار بمحاولة التواصل معه يوماً بعد يوم، فتتقبل كل صد وكل رفض بارد مقتضب بأن يتحدث معها.

أنا صديتها وأبعدتها. كانت مظلومة ووحيدة، وأنا صديتها بعيداً عني. شعر فيتو بذنب عظيم إلى درجة أنه ظن أن ذلك قد يقتله ويخترقه حتى لبّه.

راقبها فيتو وهي تتناول ملابسها للحظة وحيدة مطولة لامتناهية، فكانت تحاول أن ترتديها بتلك الحركات المرتبكة. ثم... بقفزة واحدة وصل إليها، فتمسك بها بيأس ملأ روحه.

كاد يختنق وهو ينطق كلماته بألم وعذاب، إذ قال: «أنا آسف...

يا إلهي! أنا آسف جداً... ظننتني أملك السبب الذي يدفعني إلى كرهك. لكنك أنتِ... يا إلهي! لديك الأسباب التي تدفعك إلى كرهي مئة ضعف! أما ما يحرقني أكثر فهو معرفتي أنني صديتك في حين أنك كنت ما زلت مؤمنة بي وتخالين أنني سأمد لك يد المساعدة. ما يحرقني أكثر هو حقيقة أنك لم تكوني حتى تأملين بأي شيء أكثر من أن أسرّ أنا بالتخلص منك! أن أكون مسروراً بأن أمنحك المال حتى تختفي...».

تهدج صوت فيتو وانحنى رأسه.

- لا بد أنك شعرت بالاحباط بعد تلك الحادثة، فحاولت البدء بحياة جديدة بعيداً عن والدتك. لاشك أنك شعرت بالسخط منا نحن الاثنين، حتى تركت دراستك، واضطررت للعمل.

راحت رايتشل تبكي، فانسكبت الدموع من عينيها بصمت، بلا توقف. أمسك بها فيتو بين ذراعيه، فاحتضنها وأرجحها ببطء ورفق فيما فاضت الدموع من عينيها. أما فيتو فوخزته الدموع المتجمعة في عينيه كما لو أنها أسيد حارق. حملها فأعادها إلى السرير بذراعيه القويتين اللتين لن تدعاها ترحل أبداً. ضمها إلى صدره فيما بكت رايتشل على ما خسراه معاً من أيامهما الماضية.

عندما هدأت، وانحسر الألم على الماضي. قال: «خسرنا وأهدرنا الكثير جداً، وهذه هي الخسارة النهائية على الإطلاق. لكننا مُنحنا فرصة أخرى، وأنا أتوسلك... أتوسلك يا حبيبتي الغالية، أن نظل هذه المرة واثقين ببعضنا البعض. ابقي معي، وأنا سأكون معك. أنا أحبك... أحبك... وأصلي بكل كياني أن تقدري على حبي بمقدار ما أحبك أنا».

سمعت رايتشل الكلمات لكنها لم تقدر على تصديقها. أخيراً أقرّت بالحزن الذي شعرت به بسبب خسارتها لحب حياتها منذ مدة طويلة جداً. أخيراً أقرّت واعترفت بالألم الذي سببته لها تلك الخسارة.

غمرتها مجموعة من الأحاسيس. ومن خلال الألم والأسى جاءها شيء رائع جداً إلى درجة أنها كادت لا تصدقه، لم تجرؤ على تصديقه.

فيتو لم يقصد أبداً أن يغدر بها، ولا أن يستخدمها لإيذاء والدتها. مطلقاً! ما حصل خلال الأسبوعين الرائعين الساحرين في روما كان حقيقياً وليس مزيفاً. ما حصل بيننا كان حقيقياً... حقيقياً وصحيحاً وملكنا نحن الاثنين، فقط ملكنا... والآن قد استرجعنا ذلك.

بعد مرور سبع سنوات مريرة طويلة من الكراهية والمقت والازدراء وإطلاق الأحكام الخاطئة، استرجعا تلك العلاقة المميزة، ولن يتركا هذه العلاقة أبداً من جديد... أبداً.

أحبك... أحبك...!

أتراه حقاً قال ذلك؟ هل فعلاً قال لها فيتو فارنيستي ذلك، وهو أكثر الرجال وسامة في العالم؟ شعرت رايتشل بتوهج في داخلها. توهج علمت أنه سوف يبقيها دافئة حتى آخر حياتها. امتلأ قلبها بالسعادة حتى أعمق أعماقها إلى درجة أنه غمرها فانسكب داخلها كما لو أنها في النعيم.

فجأة عكر عليها سعادتها شيء ما جعل سرورها يتبخر. كيف يعقل أن يحظيا بالسعادة؟ إن الماضي يقف حائلاً بينهما. انطلق من رايتشل نشيج كاد يخرج منها، لكنها خنقته.

- آه... يا إلهي! فيتو... هذا كله غير مجدٍ! لا منفعة منه! لا يمكننا أن نحب بعضنا البعض... لا يمكننا!

ابتعد فيتو عنها، قليلاً، وقد امتلأت عيناه بالقلق.

- كيف يمكننا أن نكون سوياً؟ والدتي ووالدك... والدك خان والدتك لكي يبقى معها!

تصلب وجه فيتو: «نشر الماضي ما يكفي من السم في حياتينا، يا حبيبتي. هم قاموا بخياراتهم. والدتك اختارت أن تعيش مع والدي، ووالدي اختار أن يخون والدتي. أما والدتي فاختارت أن تبقى معه في

حين كان بمقدورها أن تهجره بسبب خيانته. أما نحن...».

استنشق فيتو نفساً عميقاً وتابع: «...فيجدر بنا أن نقوم بخياراتنا».

نظر فيتو إلى رايتشل بعمق داخل عينيها، وتابع: «أنا اخترتك أنت، يا أجمل فتاة، يا أغلى فتاة، يا حبيبتي. أنا أخترك أنت لتكوني حبي، لتكوني زوجتي وروحي، حتى آخر أيامنا».

انحنى فيتو مرة أخرى نحوها فختم وعده، وخياره... وعانقها.

www.elromancia.com

الخاتمة

- فيتو لست مضطراً لأن تفعل هذا... لست مضطراً إلى ذلك.

بدا صوت رايتشل خجولاً، فيما توقفت أمام الباب في الرواق الهادئ المغطى بالسجاد.

تكلم فيتو وقد انخفض صوته: «لم يكن يجدر بي أن أكرهها. كرهتها بسبب الألم الذي أصاب والدتي. أعلم الآن أن الذنب يقع على والدي. بالرغم من أنني اعتبرتها انتهازية وجشعة، لكن والدي لم يكن شخصاً يمكن استغلاله. الذنب الأكبر يقع عليه لا عليها. كان الأمر فقط... أنسب بالنسبة إلي أن أجعل منها الشريرة. والدي كان رجلاً صعب المراس، أما والدتك فكانت منقادة إليه تماماً. لذا...».

ضغط فيتو على يدها، وتابع: «... أرجوك لا تخشي شيئاً، فأنا لن أقول أي شيء يزعجها».

بدا حلق رايتشل ضيقاً وهي تجيب بصوت مبحوح: «شكراً لك... لم يتبق أمامها الكثير من الوقت».

رفع فيتو يد رايتشل، فضغط بشفتيه عليها وقال: «إذاً دعينا نبرهن لها أن حلمها الأخير قد تحقق».

أدار فيتو مقبض الباب، فأدخل رايتشل أمامه إلى غرفة والدتها. عندما استقرت نظرته على الشكل الراقد في السرير، اعتقد أنهما حتماً لم يدخلا إلى الغرفة الصحيحة. أيعقل أن تكون المرأة الهزيلة المريضة ذات الشعر الرمادي المستلقية هناك هي نفسها التي عذّبت فترة مراهقته؟ هل وصلت آرلين غراهام إلى هذه الحالة؟

توقف فيتو قليلاً، بينما مشت رايتشل نحو السرير وقالت برقة: «أمي!».

تحركت المرأة في السرير قليلاً، وأدارت رأسها بحيث صارت تنظر نحو مصدر الصوت. ارتكزت عيناها على رايتشل، فيما بدا من الواضح أنها تجد صعوبة في ذلك، تحركت نظرات آرلين قليلاً وتحولت عن رايتشل نحوه. ثم حصل شيء ما غير اعتيادي على الإطلاق... أضيء وجهها الهزيل كما لو أن الشمس أشرقت من خلال عينيها.

- إنريكو... أهذا أنت؟ أهذا أنت حقاً؟

ارتفعت يدها الواهنة عن أغطية السرير، ثم عادت وهوت.

استطاع فيتو أن يشعر برايتشل تتصلب إلى جانبه، فتقدم خطوة إلى الأمام ووصل إلى السرير. تفحصت وجهه عينا آرلين الباهتتين فيما ارتسمت في أعماقهما تعابير من غير الممكن ألاّ يتعرف إليها المرء.

يا إلهي! آرلين غراهام أحبت والده. الحب وحده قادر على أن ينير وجهها على هذا النحو. لوهلة بدا كأن المرض يختفي من ملامحها، للحظة وجيزة بدا كأن الجمال يظهر على وجهها من جديد.

سُمع الصوت الواهن المتوسل مجدداً: «إنريكو...!».

مدّ فيتو يده، فضغط بها على الأنامل: «نعم. أنا هنا، يا حبيبتي».

كيف يمكنه أن يحرمها من ذلك في وقت كهذا؟ أومض شيء ما في عينيها للحظة، وبإحساس من الخشية أدرك فيتو ما هو. إنه الأمل! ثم تلاشى الوميض، وغطّت عيني آرلين نظرة مظلّلة، فقالت بنعومة: «لا... لست إنريكو. أنا لم أكن حبّه أبداً».

بحثت عيناها في وجه فيتو، ثم حلّت بهما عجيبة جديدة: «فيتو!».

نطقت اسمه بزفير بطيء. وتحركت عيناها ببطء نحو ابنتها التي كانت.قد تراجعت قليلاً إلى الوراء، فيما بدت تعابيرها مشحونة. أضافت: «رايتشل... إذاً الأمر حقاً صحيح؟».

استدار فيتو فجذبها إلى الأمام. استطاع أن يرى الدموع تنسكب من عينيها، فزمّ حلقه أكثر.

تحدث فيتو بهدوء مع المرأة المستلقية هناك على فراش موتها، فقال: «نعم إنه صحيح. ابنتك هي عروسي... زوجتي. وهي أكثر من ذلك... إنها المرأة التي أحب، والتي لطالما أحببت، وسوف أحبها دائماً. وأنا أطلب...».

ازداد صوته خشونة فيما تابع:

- ... أطلب مباركتك لنا.

توقف فيتو عن الكلام إذ بالكاد بات قادراً على المتابعة. بعدئذٍ فقال: «لأجل حبك لوالدي، الذي لم... لم أعرفه مطلقاً».

ضغطت آرلين بأناملها الركيكة على أنامل فيتو من دون قوة، ثم انزلقت من قبضته. بعدئذٍ تكلمت بحيوية أكبر: «لم يكن يريدني أن أحبه. لكنني فعلت ذلك مهما يكن. تماماً مثلما أحبت والدتك...».

توقف صوت آرلين، فطاردت فمها ابتسامة حزينة مريرة، وتابعت: «... هنالك أشياء مشتركة بيننا أكثر مما رغبنا بها. فكلّ منا أحبت رجلاً لم يكن يبادلها الحب... لم يكن قادراً على أن يحبها. مسكينة سيلفيا. على الأقل أنا تمكنت من التواجد مع إنريكو علناً، أما والدتك فلم تحصل على ذلك حتى. تلك النوبات العصبية التي اضطرت إلى تحملها منحتها العذر الذي تحتاجه لكي تهرب إلى الشاليه الخاص بها في الجبال، حيث كان بمقدروه أن يأتي لرؤيتها...».

جرت الدماء باردة في عروق فيتو. خرج السؤال من فمه: «من؟».

نظرت آرلين إليه بعينيها المغشيتين فقالت: «ألم تخبرك قط؟ لا... إنها لن تفعل. لطالما حاولت حمايته، فالفضيحة قد تكون مريعة. حتى الآن، ما زال الكل يعتبرها زوجة إنريكو...».

عدم التصديق جعل فيتو يبدو مصدوماً:

- من هو؟.

تردّد الالحاح الظاهر في صوته بأرجاء الغرفة، فيما وقفت رايتشل إلى جانبه من دون حراك. نظرت آرلين إلى فيتو بعينين مغبرتين، وقالت: «أنت كنت تناديه العم بيترو».

تجمّدت ملامح فيتو، وقال: «بحق الله...!».

العم بيترو هو صديق قديم للعائلة، وهو كاردينال في الكنيسة.

- لم تجرِ بينهما علاقة غرامية أبداً، فوالدتك لم تحصل أبداً حتى على ذلك. إنها علاقة عاطفية فقط. لم يكن بالإمكان أن تتخطى ذلك بسبب عهوده الكنسية. مسكينة سيلفيا...

ضعُف صوت آرلين، وأغمضت جفنيها فيما استسلمت مجدداً للنوم الذي تسببه العقاقير التي تحميها من الألم.

حدّق فيتو من دون أن يرى. العالم الذي تربّى فيه تلاشى تحت قدميه. طيلة هذه السنوات كان يرى والدته على أنها الضحية...

استدار مبتعداً، حانياً ظهره وقد وضع يديه على شكل قبضتين على خصره. لفّت رايتشل ذراعيها حوله، واقتربت منه، ثم ضغطت بخدها على ظهره. إنه الدعم الوحيد بالنسبة إليها في العالم بأسره، وقد اهتز الآن حتى أعماقه. لم تقل رايتشل شيئاً، بل فقط تركت المرارة تطبق عليه. أخيراً تكلمت: «فيتو! تلك كانت حياتهم. لا يمكننا أن نطلق عليهم الأحكام. يجب علينا فقط...».

اهتز صوت رايتشل وهي تتكلم، فتابعت: «... فقط أن نكون مسرورين أن حياتهم ليست حياتنا. وأننا مُنحنا فرصة... خياراً... بالسعادة، وبالحب، الذي لم يملكه أي منهم. هل كان والدك قادراً على أن يحب امرأة ما؟ حتماً لم يحب والدتي، بالرغم من أنها أحبته. أما والدتك، فكان محكوم عليها أن تحب رجلاً لا يقدر على أن يحبها كامرأة. لا يمكننا أن نحاكمهم. يمكننا فقط أن نشفق عليهم، وأن نُسرّ، نُسرّ كثيراً جداً، أن دربنا مختلف عن دربهم».

أدارته رايتشل نحوها بذراعيها، ثم انزلقت يداها لتحضنا وجهه،

بينما حدّقت نظراتها مناشدة في عينيه الجريحتين.

انحنى فيتو وعانقها. بعدئذٍ رفع رأسه وقال: «أنت على حق».

ثم أخفض رأسه وعانقها مجدداً.

* * *

تسللت أشعة الشمس من خلال أغصان الأشجار التي ما تزال عارية من الأوراق، لكنها مخضرّة بنضارة عودة الربيع... عودة الحياة. لكن عيني رايتشل ظلتا مستقرتين على اسوداد الأرض المنشقّة، فيما أنزل نعش والدتها ببطء إلى مرقده الأخير.

إلى جانب رايتشل وقف زوجها وهو محني الرأس. وإلى الجهة الأخرى وقف شخص آخر، أقصر منها. إنها امرأة ترتدي ملابس سوداء، وقد أحنت رأسها ذا الشعر الرمادي أيضاً.

انتهى الكاهن من تلاوة الصلوات، فجاء نحوهم، وتناول أيديهم، وتمتم كلمات اللطف والتهدئة. ثم بكلمة وجيزة من فيتو، أومأ برزانة ومشى مبتعداً قليلاً عن البقية. تقدمت رايتشل خطوة إلى الأمام. ثم تركت باقة الزهر التي كانت تقبض عليها بيديها تهوي إلى القبر. تراجعت بعد ذلك إلى الوراء، فكان فيتو موجوداً لأجلها كي يحضنها قربه.

- يا ابنتي العزيزة.

نطق صوت آخر ذو لهجة إيطالية رقيقة وخافتة مليئة بالأسى. رفعت رايتشل رأسها فاستدارت وهي ترمش والدموع تملأ عينيها. قبّلتها المرأة بلطف على وجنتيها.

- يجب أن تكون دموعك لنفسك فقط، فلا تبكي على والدتك. احزني على خسارتك، لكن لا تحزني عليها.

مدّت المرأة يدها، وأومأت باتجاه القبر المفتوح ثم نحو القبر الآخر المجاور له فقالت بهدوء: «أخيراً أصبحت برفقته. لا شيء يمكنه أن يفرقها عنه الآن».

ابتلعت رايتشل ريقها بألم، وقالت: «ذلك لطف كبير من قبلك...»

بدأت رايتشل تتكلم بصوت خافت، لكن المرأة الأخرى قاطعتها.

- لا! إنه مكانها هي. لم يكن مكاني أنا... أبداً. ما كان يجدر بي أن أتزوج إنريكو. كنت أعلم أنني لا أحبه. كنت أعلم أن قلبي سوف يبقى إلى الأبد ملكاً لبيترو، بالرغم من أنه لم يكن يريده... بالرغم من أن نداء الواجب أخذه ليصير كاهناً. لكن والدتك أحبت إنريكو، ومكانها في مماتها هو إلى جانبه. ومكانك أنتِ...

توقفت المرأة فاستطاعت رايتشل أن تسمع التقطع في صوتها، بعدئذٍ تابعت: «... هو مع ابني».

توقفت المرأة مجدداً عن الكلام، وقد غمرت الأحاسيس وجهها، فتناولت يدي فيتو ورايتشل سوياً فيما وقفوا في المقبرة الهادئة حيث استقرت آرلين غراهام الآن إلى جانب إنريكو فارنيستي.

استقرت عينا أرملة إنريكو فارنيستي على ابنها وكنّتها.

- بعد هذا الألم وهذا الأسى، شفانا الزمن جميعاً. وأنتما كنتما الشفاء. حبكما لبعضكما عوّض عن الماضي... الماضي الذي كان ملكاً لي ولإنريكو، ولآرلين ولبيترو. لقد سببنا الألم لكليكما، ومع ذلك فحبكما تجاه بعضكما هو راحتي وعزائي.

ابتسمت سيلفيا ابتسامة حزينة ملؤها الأسى.

- الآن هنالك جيل جديد ونعمة جديدة. يا ابنتي العزيزة، إن الحفيد الذي وضعت لأجله باقة الأزهار تلك في قبر والدتك، سوف يحتل قريباً مكانه في هذا العالم. وسوف يتحلى بأكبر نعمة يمكن لطفل أن يحصل عليها؛ والدين يحبان بعضهما، ويقفان مع بعضهما بوفاء وصدق. أهلكما لم يقدروا على منحكما تلك النعمة، وقد نتج عن ذلك الكثير من الحزن بالنسبة لكما، لكنكما قادران على أن تمنحا ابنكما تلك البركة، لذا تعالا الآن، دعي والدتك ترقد إلى جانب

الرجل الذي أحبته، ولا تدعي الماضي يؤلمك بعد اليوم. إن المستقبل بانتظاركما... ولادة طفلكما بانتظاركما.

ضغطت سيلفيا بيديها مرة أخيرة على يديهما ومشت مبتعدة، حتى تتكلم قليلاً مع الكاهن. لفّ فيتو ذراعه حول رايتشل مجدداً، أما يده فاستقرت على بطنها المنتفخ، وأحنت رايتشل رأسها لتسنده على فيتو.

- والدتي قالت الحقيقة. يجدر بنا أن ندع الماضي يولي، لأنه ليس ملكاً لنا. المستقبل فقط يخصنا... ويخص طفلنا. لكن...

علقت أنفاس فيتو فتابع: «... سعادتنا ستكون الهدية التي نمنحها لهم جميعاً، ولابننا أيضاً... لجميع أولادنا».

عانقها فيتو برقة وبنعومة، فمسح عناقه الدموع من عينيها. وغمرها سلام عميق ثابت.

- آه، فيتو! أحبك كثيراً...

عانقها فيتو من جديد بتبجيل واهتمام، وقد اتقدت عيناه بالحب.

- وأنا أحبك، وسأحبك إلى الأبد.

استدارا سوياً، وسارا مبتعدين عن الماضي، نحو المستقبل المشرق الذي ينتظرهما.